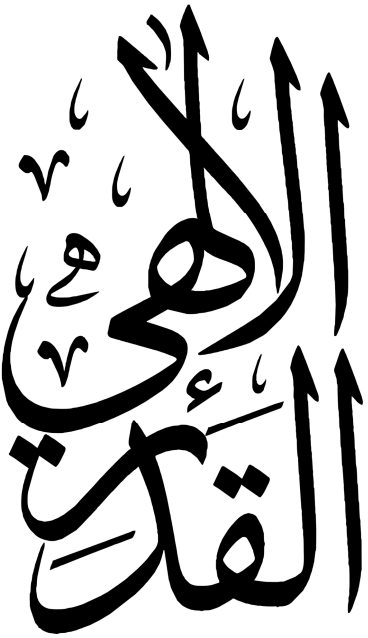

القدرة الإلهية

بقلم:

حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد رضي الله عنه

الخليفة الثاني للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

ترجمة: محمد طاهر نديم

ISLAM INTERNATIONAL PUBLICATIONS LTD

اسم الكتاب: القدر الإلهي

الطبعة الأولى: ١٤٤٢هـ الموافق لـ ٢٠٢١م

An Arabic rendering of

Taqdīr-e-Ilāhi (Urdu)

(Divine Decree)
by
Hazrat Mirza Bashir-ud-Deen Mahmood Ahmad
Khalifatul-Masih II, (may Allah be pleased with him)

Translated from Urdu by: Muhammad Tahir Nadeem

First Published in UK in 2021

© Islam International Publications Ltd.

Published by:
Islam International Publications Ltd.
Unit 3, Bourne Mill Business Park,
Guildford Road, Farnham, Surrey, GU9 9PS
United Kingdom

Printed in the UK at:
Raqeem Press
Farnham, Surrey
GU9 9PS

For further information please contact:
Phone: +44 1252 891330
www.islamahmadiyya.net

Cover designed by: Anan Odeh

ISBN: 978-1-84880-986-4

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة الناشر	أ
مسألة القضاء والقدر	١
القدر الإلهي	٣
أهمية مسألة القدر الإلهي	٤
قول النبي ﷺ عن مسألة القدر	٥
مسألة القدر من أركان الإيمان	٦
الإيمان بالله يقتضي الإيمان بالقدر	٨
التفكير في القضاء والقدر والنـــزاع حوله	٩
نتيجة لعدم فهم مسألة القدر	١٢
تصرّف المسلمين غير السليم بشأن مسألة القدر	١٤
أخذ بعض الجوانب وترك بعضها	١٥
أساس عقيدة المسلمين الخاطئة حول القدر الإلهي	١٦
القرآن ينفي الفكرتين	١٨
الرد على فكرة إرغام الله الناسَ على أفعالهم	١٩
المفهوم الصحيح للآية الثانية	٢٠
المعنى الصحيح للآية الثالثة	٢٢
المفهوم الصحيح للآية الرابعة	٢٤

المفهوم الصحيح للآية الخامسة ٢٤
المفهوم الصحيح للآية السادسة ٢٧
ردّ فكرة التعطيل الإلهي ٢٩
الخلط بين علم الله تعالى والقدر ٢٩
توضيح أكثر ٣١
لماذا لا يمنع الله الإنسان من ارتكاب السوء ٣٢
أقوال الصوفية ٣٤
معنى أقوال بعض الناس ٣٧
المعنى الصحيح لكلام الصوفية ٣٨
فئة أخرى ٣٨
الانخداع بسبب الاسم الخاطئ ٣٩
تسمية خاطئة لمسألة القضاء والقدر ٤٠
كلمة التدبير مقابل القدر خاطئة ٤١
التسمية الصحيحة ٤٢
لا يكفي الإيمان بالقدر باللسان فقط ٤٣
هل الله تعالى يجبر على كل فعل؟ ٤٦
خطأ أهل التدبير ٤٧
الأمور الذوقية عن مسألة القدر ٤٨
أنواع القدر ٤٩
ظهور القدر ٥١

تفاصيل القدر الخاص ٥٢
علاقة القدر بالأسباب ٥٤
الأسباب الخفية للقدر ٥٩
القدر الخاص بدون أسباب ٦٣
علاقة القدر بأعمال البشر ٦٦
هل يجوز اتخاذ الأسباب وقت نزول القدر؟ ٧٣
لماذا يؤمر العبد باتخاذ الأسباب في بعض الحالات؟ ٧٦
هل يمكن أن يزول القدر الإلهي؟ ٧٩
كيف يمكن أن يزول القدر؟ ٨٠
علاقة زوال القدر بالنبوءات ٨٤
لماذا تزول النبوءات؟ ٨٧
القدر المبرم ٩٣
هل يوحي زوال القدر بحدوث نقص أو عيب في عظمة الله؟ ٩٤
إزالة بعض الشبهات المتعلقة بمسألة القدر ١٠٧
أضرار ناجمة عن سوء فهم مسألة القدر ١١٣
ضرورة الإيمان بالقدر ١١٨
الأضرار الناجمة عن عدم وجود القدر الإلهي ١١٩
أضرار ناجمة عن عدم وجود القدر الخاص ١٢٢
أهمية القدر الخاص وضرورته ١٢٧

ضرر آخر لعدم وجود القدر ١٣٠
الإيمان بالقدر الإلهي يحقق الدرجات السبع للروحانية ١٣٢
لماذا تأتي الابتلاءات؟ ١٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مقدمة الناشر

"القدر الإلهي" خطابٌ ألقاه المصلح الموعود ﵁ في مسجد "النور" بقاديان بمناسبة الجلسة السنوية في عام ١٩١٩م. إن مسألة القدر الإلهي صعبة ودقيقة للغاية، فألقى ﵁ خطابًا حول هذا الموضوع، وقال عنه: "قد سألت الله تعالى بكل تواضع: اللهم إن كان إلقاء الخطاب حول هذا الموضوع على مسامع الناس ليس مناسبا فألقِ في روعي ألا أقدّمه. وبعد ذلك انشرح صدري بالارتياح بإلقائه. إنه لموضوع صعب للغاية ويتطلب جهدا وسعيًا كثيرًا لاستيعابه، ولكن إذا استوعبتموه مرة فستستفيدون به كثيرا."

لقد ذكر الخليفة الرابع رحمه الله بعض المقتبسات من هذا الخطاب وعلق عليها، فقال حضرته رحمه الله بأنه لم يكن سهلا إلقاء الخليفة الثاني ﵁ خطابًا حول هذا الموضوع في اجتماع عام يضم مثقفين وأميين، أذكياء وبسطاء، فإن تناوله هذا الموضوع بطريقة رائعة وآسرة كان من خاصته هو. لم يكن هذا مجرد خطاب، بل يعدّ تحفة في علم الكلام. فبعد ذكره أهمية مسألة القضاء والقدر وسرده أقوال النبي ﷺ

بهذا الخصوص، قال شارحًا هذا الموضوع بأن مسألة القضاء والقدر من الإيمانيات، فلابد من الإيمان بها، وبوجود البارئ ﷻ. ثم فصل في النظريات المختلف فيها حول مسألة القضاء والقدر ووفّق بين بعض أقوال النبي ﷺ، وبعد ذلك ذكر كيف تعثر الإنسان كثيرًا نتيجة عدم فهمه لمسألة القدر. ثم كشف عن أخطاء عقيدة وحدة الوجود فردّ عليها من خلال الأدلة القاطعة المأخوذة من ست من الآيات القرآنية. ثم تناول الجانب الآخر لهذه العقيدة الذي أسهب فيه أيضا فأثبت بطلانه وردّ بأدلة قوية على الزعم القائل بأن الله تعالى لا يسعه فعل شيء، وإن سعي الإنسان وعمله هو كل شيء. لقد قدّم ﷺ تحليلا رائعًا لتعثر فكر الإنسان نتيجة خلطه بين العلم الإلهي وبين القدر الإلهي، وفصّل حضرته هذه القضية أيما تفصيل.

ثم يقول الخليفة الرابع رحمه الله: إن هذا الخطاب يبحث في القدر الإلهي من جميع جوانبه بحيث رُدّ فيه على اعتراضات قديمة وجديدة مختلفة. لقد ذكر حضرته سبعة مدارج روحانية يمكن للإنسان أن ينالها بعد فهمه الصحيح لمسألة القدر الإلهي، ونتيجةَ تحقيقه متطلبات هذه القضية.

لقد كان شرف ترجمة هذا السفر العظيم من نصيب الداعية محمد طاهر نديم، كما أسهم في مراجعته وإخراجه عدد من الإخوة الكرام

والأساتذة الأفاضل، ونخص بالذكر السيد خالد عزام، والدكتور وسام البراقي، والسيد حلمي مرمر، والآنسة أمان الله البراقي، فجزاهم الله أحسن الجزاء.

لقد بذلنا أقصى جهدنا لِتكون الترجمة أقرب إلى النص الأردي، ومع ذلك لا نبرئ أنفسنا من ضعف فيها. وندعو الله تعالى أن يوفقنا لبذل جهد أكبر في الطبعات القادمة لتحقيق مزيد من الدقة.

نسأل الله تعالى أن يوفق القارئ الكريم للاستفادة مما يحويه هذا الكتاب من علوم ومعارف، وأن يجعله سببا لهداية الباحثين عن صراط الله المستقيم، آمين.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

مسألة القضاء والقدر

لقد ألقيت خطابي هذا حول مسألة القدر الإلهي في الجلسة السنوية في ديسمبر/كانون الأول ١٩١٩م، وكنت قد اختصرته كثيرًا وقتها لضيق الوقت، وكان في بالي أنني سأضيف إليه بعض الأمور الهامة عند تصحيح المادة المكتوبة، ولكن تبين لي عند مراجعتها أن أخطاء كثيرة قد حدثت أثناء تحرير الخطاب؛ وبدا لي من الصعب جدًّا تصحيحها، إذ تغيَّر الموضوع في بعض الأماكن لدرجة شعرت عندها أن تصحيحه يحتاج مني وقتا أطول من كتابته من جديد، كما غدا صعبًا علي – بسبب الخلط الحاصل في الموضوع– إضافة بعض القضايا الهامة في أماكنها، لأجل ذلك تخليت عن إرادتي السابقة واكتفيت بتصحيح الأخطاء الواردة في هذه المادة المكتوبة لخطابي، وسعيت جاهدًا لتبسيط الموضوع ليكون أقرب إلى أفهام الناس، فأضفت بعض الأمور في مكان أو مكانين فحسب. وبما أنني لم أستطع عند مراجعتي لهذه المادة إضافة بعض الجوانب الهامة التي كانت بحاجة إلى شيء من

التوضيح والتفصيل، ولم أتمكّن من تناولها أثناء خطابي، لذلك أنوي بتوفيق من الله تأليف كتيب منفصل حول هذه المسألة لاحقًا، أما الآن فنظرًا إلى انتظار الناس أكتفي بنشر هذه المادة.

العبد المتواضع

مرزا محمود أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

القَدَر الإلهي

(خطاب ألقي في ٢٨ و ٢٩ كانون الأول ١٩١٩م بمناسبة الجلسة السنوية بقاديان)

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لــه، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرَّجيم. ﴿بسْمِ الله الرَّحْمَن الرَّحيم* الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمينَ * الرَّحْمَن الرَّحيم * مَالك يَوْم الدِّين * إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعينُ * اهْدنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقيمَ * صِرَاط الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْر الْمَغْضُوب عَلَيْهمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطَّلَاق: ٣-٤).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾. (النحل: ٣٦-٣٧)

أهمية مسألة القدر الإلهي

لقد ذكرت بالأمس أنني أريد أن أتكلم أمامكم في مسألة هامة، وأخبرتكم أيضا بأنها تتعلق بالإيمانيات. لقد ركزت على الأعمال عمومًا في خطبي في الجلسات الماضية، أما هذه المرة فأريد طرح بعض الأمور المتعلقة بالإيمان. واخترت مسألةً صعبة جدّا من الأمور الإيمانية الهامة وقد وقع تأثير سلبي خطير على أعمال الناس بسبب هذه المسألة. فما هي هذه المسألة؟ إنها مسألة القضاء والقدر التي تسمى عادة بالتقدير أو الحظّ أيضا، وما إلى ذلك من أسماء تعارف عليها الناس. إن مسألة القدر من أركان الإيمان وهي مسألة صعبة للغاية، وكم من الناس قد هلكوا بسبب عدم فهمهم لها، وكم من قوم تعرضوا للدمار لجهلهم بها، وكم من دين اندثر لعدم علمه بهذه القضية. بل يمكن القول بأن مردّ التعاليم المدمرة لأخلاق الإنسان

وأعماله التي قد تسربت إلى الأديان المختلفة هو إلى عدم فهم أصحابها لهذه المسألة، ويضحك أهل أوروبا على المسلمين بسبب هذه المسألة؛ ولكنهم لا يضحكون بلا سبب، إذ إنّ المسلمين أنفسهم يتيحون لهم الفرص للضحك عليهم. فمثلا يقول المؤلفون الأوروبيون بذكر وقائع حروب خاضها المسلمون: كان إطلاق النار رهيبًا في موقعة كذا، إلا أن المسلمين ما تقهقروا، بل ظلّوا يتقدّمون نحو الأمام. وبعد ذلك لا يكتبون بأنه يدل على شجاعتهم وبسالتهم، بل يقولون: ذلك لأنهم كانوا موقنين بأنه إذا كان قد قُدّر لهم الموت فسيموتون وإلا فلا. ثم يقولون: لو ثبت المسلمون في مواجهة العدو لهذا السبب لما كان في الأمر غرابة، ولكن الحقيقة أنه لو استمر إطلاق النار المذكور لفترة أطول للاذوا بالفرار.

قول النبي ﷺ عن مسألة القدر

باختصار، إن الإيمان بالقدر الإلهي من أهم المسائل، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ." (سنن الترمذي، أبواب القدر، باب ما جاء أنّ الإيمان بالقدر خيره وشرّه).

وقال أيضا: "من لم يؤمن بالقدر خيره وشره فأنا بريء منه." (كنز العمال، المجلد الأول، الفصل السادس في الإيمان بالقدر، الرواية رقم ٤٨٥).

ويتضح من ذلك أن مسألة القدر تقع على جانب كبير من الأهمية. فمن خرج من بيته بحثًا عن الإيمان مريدًا أن يكون من المؤمنين فلا بد له أن يؤمن بالقدر خيره وشره. ولكن الذي يدعي الإسلام دون الإيمان بالقدر فليس بمسلم وفق تعليم النبي ﷺ، لأنه لا تنطبق تسمية المسلم إلا على تابع النبي ﷺ وخادمه، ولا بد من الرجوع إلى النبي ﷺ لمعرفة المسلم من غيره، ولقد قال النبي ﷺ ما مفاده: ليس مسلمًا من لم يؤمن بالقدر.

مسألة القدر من أركان الإيمان

قد يخطر ببال أحد أن النبي ﷺ أدرج القدر بزمرة الإيمانيات لإبراز أهميتها فقط، كما قال ﷺ: لا يؤمن مَنْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ (كأنْ يدعي بأنه من السادات وهو ليس كذلك). (انظر: أبو داود، كتاب الأدب، باب في الرجل ينتمي إلى غير مواليه). أو كقوله ﷺ: قتال المسلم كُفرٌ. (مسند أحمد بن حنبل)

أو كما قال ﷺ عن كثير من الأمور الأخرى: ليس مؤمنا من لا يفعل كذا، أو لا يؤمن من يفعل كذا. فقد اتضح من قول النبي ﷺ السابق أنه لو سمّى أحدُ الأفغان نفسَه سيِّدًا، أو تظاهر أحد المغول بأنه من السادات، أو نسب أحد نفسه إلى عائلة شريفة ومرموقة دون انتمائه الحقيقي إليها، فليس بمؤمن؛ فلعل قول النبي ﷺ عن القضاء والقدر كان

بهذا المعنى، ويترتب على ذلك أنه يجب الأخذ به، وعدم قبولِه إثم، بل هو إثم كبير، إلا أنه لا يُخرج الإنسان من الإيمان والإسلام.

اعلموا أن جميع المسائل الإيمانية -التي لا يُسلِم أحد بدون الإيمان بها- واردة في القرآن الكريم، ولا تنبني على الأحاديث لأنها لا تفيد إلا علمًا ظنيًّا. فلا بد لنا من الرجوع إلى القرآن الكريم لمعرفة ما يدخل في الإيمانيات من مسائل. فما عُدّ إنكاره كفرًا في القرآن الكريم دخل في الإيمانيات، وما لم نعثر له على شهادة من القرآن الكريم فهمنا أن الكلمات المستخدمة فيه جاءت لبيان أهميتها والتأكيد عليها فحسب.

وعليه فلو أمعنا النظر في القرآن الكريم لمعرفة البيان الوارد فيه عن القدر الإلهي ما عثرنا على كلمات الإيمان بالقدر، ولكن علمنا أن الإيمان به ضروري، وذلك لأن الحكم الأول في القرآن الكريم هو الإيمان بالله تعالى، أما الإيمان بالقدر فهو جزء من الإيمان بالله تعالى.

فما هو القدر؟ إنما هو اسمٌ لظهور صفات الله تعالى. فمثلًا مَن يؤمن بوجود الله تعالى فلا بد له أن يؤمن بأن الله تعالى يفعل ما يريد، وليس هو ذاتًا لا تحرك ساكنا، ولا تقدم ولا تؤخر. فإن الإيمان بصفات الله تعالى هو الإيمان بالقدر بعبارة أخرى، وهكذا فقد تضمن الإيمان بالله الإيمانَ بالقدر الإلهي أيضا. فليس تأكيد النبي ﷺ على

الإيمان بالقدر كتأكيده على تجنب كبائر الذنوب، بل ما قاله بهذا الشأن مبني على الحقيقة.

الإيمان بالله يقتضي الإيمان بالقدر

مع أن القرآن الكريم لم يذكر هذه المسألة بصورة منفصلة، بل ضمّنها في الإيمان بالله تعالى، إلا أن النبي الكريم ﷺ قد أفردها وفصّل فيها. ولا يمكن الإيمان بالله تعالى حقيقةً ولا فائدة منه بدون الإيمان بصفاتِه. لأن بعض الملاحدة أيضا يؤمنون بوجود الله دون الإيمان بصفاته، إذ يقولون: يُنسَب إلينا خطأً إنكارُ وجود الله تعالى، في حين أننا نؤمن بالله تعالى، إنما لا نؤمن بأنه ينـــزل الملائكة، ويبعث الأنبياء، ويرسل رسائل ويعطي كتبًا، بل نؤمن بأن هناك قوة عظيمة تدير نظام الكون ونسميها القوة المحركة.

وعليه فلا ينكر بعض الملاحدة أيضا وجود الله تعالى في الظاهر. ولكن أيُّ إله يؤمنون به؟ هو مَن لا يحتاجون إليه. إن إيمانهم هذا يشابه مقولة شائعة دارجة بين الناس: أموالنا هي أموالكم. ولكن لا يعني أحد منهم قطعًا أن يأخذ المخاطب ماله. كذلك يقول بعض الناس: نؤمن بأن هناك ذاتًا وقوة وروحًا عظيمة موجودة في الكون، أما أن تكون تلك الذات إلهًا يأمرنا بأمور وينهانا عن أخرى، فلا نسلم بذلك. معتقدات

الملاحدة هذه منتشرة في العالم، فلو آمن أحد بالله تعالى على هذه الشاكلة فلا يكفي إيمانه، لأن الملاحدة أيضا يؤمنون بمثل هذا الإيمان. فلا يعني الإيمان بالله تعالى الإيمان بذاته فقط، بل لا بد من الإيمان بصفاته أيضا، ولا يقتصر الأمر على هذا فقط، بل يجب الإيمان بظهور تلك الصفات الإلهية، وهذا ما يسمى بالقدر الإلهي.

إذن فلا بد للإيمان بالله تعالى من:

أولا: الإيمان بذاته،

ثانيا: الإيمان بصفاته،

وثالثًا: الإيمان بظهور صفاته.

وقد سمّى النبي ﷺ القسم الثالث منفصلا تحت عنوان القدر الإلهي، وأخبرنا بأن ظهور صفات الله المتعلقة بالعباد يسمى بالقدر.

التفكير في القضاء والقدر والنزاع حوله

إن الإيمان بالقدر ضروري لدرجة أنْ قال النبي ﷺ من ناحية أنه ليس مؤمنا من لا يؤمن بالقدر -ولم يقل ذلك تبيانًا لأهمية الأمر فقط، بل الإيمان بالصفات الإلهية هو جزء من الإيمان بالله تعالى وفق ما يصرح به القرآن الكريم-، ومن ناحية أخرى هناك أمر خطير يتعلق بالقدر الإلهي وهو أن النبي ﷺ قال بأن التفكير فيه والنـــزاع حوله يؤدي بالإنسان إلى الهلاك. فهناك رواية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ

وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فَقَالَ: أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ.

(سنن الترمذي، أبواب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر).

وكذلك ورد في رواية أَنَّ ابْنَ عُمَرَ جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ فَقَالَ لَهُ إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّهُ قَدْ أَحْدَثَ فَإِنْ كَانَ قَدْ أَحْدَثَ فَلَا تُقْرِئْهُ مِنِّي السَّلَامَ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ يَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْ فِي أُمَّتِي -الشَّكُّ مِنْهُ- خَسْفٌ أَوْ مَسْخٌ أَوْ قَذْفٌ فِي أَهْلِ الْقَدَرِ.

(الترمذي، أبواب القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء).

ويتضح من هذين الحديثين أن مسألة القدر خطيرةٌ يؤدي الخوض فيها إلى ضياع الإيمان، بل تنبأ النبي ﷺ أن طائفة من الأمة سوف تتعرض للعذاب بسبب خوضها في هذه المسألة. ومن جانب آخر نرى تأكيدًا شديدًا على الإيمان به لدرجة أَنْ كُفِّر مَن لا يؤمن به. ولا يمكن الإيمان بأي أمرٍ دون فهمه، إذ أنّى للإنسان الإيمان بأمر لا يدرك حقيقته؟ وما الفائدة من إجبار أحد على الإيمان بشيء لا يستوعبه.

فلا بد لنا من أخذ الحيطة والحذر في مسألة القدر. وينبغي أن نعرف مراد الشريعة من منع النـــزاع في هذه المسألة؟ وما معنى الإيمان بها؟ وذلك حتى لا نواجه الهلاك والدمار جراء عدم التزامنا بأخذ

الحيطة. إن هذه القضية في الحقيقة "جسر الصراط" في هذه الدنيا بحيث لو لم يسرِ عليه المرء حُرم من الجنة، أما لو سار عليه فهناك خطر أن يُقطَع إلى نصفين ويَسقط في قاع الجحيم. ولكن يجب أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار أنه كما لا يستطيع أحد دخول الجنة دون مروره من جسر الصراط -وفي مروره منه احتمالان اثنان؛ إما السقوط وإما العبور- كذلك الحال في مسألة القدر، فلو لم يفهمها الإنسان لضاع إيمانه، أما لو خاض فيها فهناك احتمالان اثنان؛ إما أن يفهمها على وجه صحيح فينال قرب الله تعالى، وإما أن يخطئ في فهمها فيلقى الهلاك والدمار.

وهنا ينشأ السؤال: لماذا أمر النبي ﷺ بعدم الخوض في هذه المسألة؟ والردّ عليه هو أنه ﷺ لم يقصد من هذا النهي عن النقاش نهائيًا في هذه المسألة، بل نهى عن الخوض فيها بناء على التقديرات العقلية، إنما ينبغي فهم هذه المسألة على ضوء الشريعة دومًا. فلو لم يكن هذا هو قصد النبي ﷺ لما وجدناه يذكر تفاصيلها في مناسبات مختلفة. فإنَّ شرحَه للمسألة والرد على الاعتراضات الواردة عليها، وتسليط القرآن الكريم الضوء عليها أيضاً، يبيّن بجلاء أن ما نُهينا عنه هو فهم هذه المسألة بدون مساعدة الشريعة، وليس البحث فيها أصلاً. لأن فهم هذه المسألة في معزل عن الشريعة في الواقع خطير جدًّا، ولا يُنتج إلا الإلحاد واللادينية والإباحية.

إن مسألة القدر تتعلق بصفات الله تعالى. فلو كان هناك من يقدر على حلها فهو الله تعالى ورسوله، ولا يسع أحدًا غيرهما الكشف عن حقيقتها. أما العقل فعاجز في هذا المجال كعجز طفل رضيع في غابة خطيرة. فلا يُخرجه من هذه الغابة الشائكة إلا هديُ الشريعة. لا أقول بأنه لا يسع العقل استيعاب هذه القضية، إنما قصدي هو عدم تمكن العقل من استيعابها بدون إرشاد الشريعة وتوجيهها، فبإرشاد الله تعالى وهديه يستطيع العقل فهم هذه المسألة بكل سهولة. أما لو كان العقل لا يفهم هذه المسألة حتى بعد إرشاد الله وتوجيه الشريعة أيضا لما أُمِرنا بالإيمان بها. فمن حاولوا فهم هذه المسألة معتمدين على عقولهم فقد ضلوا ضلالا كبيرًا وأضلوا الآخرين أيضا.

نتيجة لعدم فهم مسألة القدر

نشأت عقيدة التناسخ لدى الهندوس لعدم فهمهم مسألةَ القدر، ونظرية الفداء لدى المسيحيين أيضا نتجت عن جهلهم بهذه القضية، إذ إنهم أنكروا صفة الله الرحمن، مما أدى إلى نشوء نظرية الفداء التي بدورها تمخضت عن نظرية بنوّة الله واعتبار الشريعة لعنةً، وغيرها من النظريات الخاطئة التي أسفرت في نهاية المطاف عن الإباحية. وهكذا فإن مردّ الإلحاد المنتشر في علماء أوروبا المعاصرين هو عدم فهمهم مسألة القدر.

ثم إن نظرية اليهود عن نجاتهم خاصةً من دون الناس، لراجعةٌ أيضا إلى جهلهم بهذه المسألة.

باختصار، تقع هذه المسألة على جانب كبير من الأهمية، وعدم فهمها أدى إلى نشوء فكرة التناسخ لدى الهندوس، والكفارة لدى المسيحيين، والنجاة الخاصة لدى اليهود، كما أنه سبب الإلحاد عند العلماء والإباحيةِ لدى المسلمين من ناحية، ومن ناحية أخرى هو السبب في تعرضهم للذلة والنكبة. لو فهم هؤلاء مسألة القدر لما تعثروا. يقول الله تعالى في القرآن الكريم مشيرًا إلى ضلال بعض الأقوام: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ (الأَنعام: ٩٢)، أي: إنهم لم يفهموا مسألة صفات الله تعالى، فتعثروا واخترعوا معتقدات جديدة لهم.

وعليه فإن السبب في انحراف أتباع الأديان السابقة عن تعاليمهم الأصلية هو عدم فهمهم مسألة القدر، أي قضية ظهور صفات الله تعالى.

إذن فهي مسألة حساسة تحتاج إلى كثير من التفكير والبحث وإلى كثير من الحيطة والحذر أيضا حتى يتمكن الإنسان من الإيمان الحقيقي بهذه المسألة من جهة، ومن جهة أخرى يتجنب غضب الله تعالى جراء خوضه فيها معتمدًا على العقل المجرد، وإلا فما قيمة الإيمان بها دون البحث والتحقيق فيها؟ هل قَرَنَ اللهُ نجاتنا بإيماننا بوجود جبال الهملايا مثلاً في موضع ما من القرآن الكريم؟ أو أنّ نهر "راوي" نهرٌ حقيقةً، أو

أن مدينة لاهور مدينةً على صعيد الواقع؟ كلا، لأن الإيمان بمثل هذه الأمور والتسليم بحقيقتها لا يمكن أن يكون مدارًا للنجاة، لأن مدار النجاة لا يتعلق إلا بالأمور بالروحانية، ولا يمكن إحراز الرقي الروحاني إلا من خلالها، ولا يعني الإيمان بها غيرَ فهمِ حقيقتها جيدًا، وإلا فلا قيمة للإيمان بها.

تصرّف المسلمين غير السليم بشأن مسألة القدر

هناك حاجة ماسة للبحث المضني والتفكير العميق في هذه المسألة. ولكن النبي ﷺ قال: "إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ." وقال أيضا: "يَكُونُ فِي أُمَّتِي خَسْفٌ أَوْ مَسْخٌ أَوْ قَذْفٌ فِي أَهْلِ الْقَدَرِ". (الترمذي، أبواب القدر، باب ما جاء في الرضا بالقضاء).

فرغم نهي النبي ﷺ عن التنازع في هذا الأمر ورغم جعلِه جزءًا من الإيمان، قد تدخل فيه المسلمون – مع الأسف الشديد – تدخلا غير سليم. وبدلا من أن يؤسسوا عقيدتهم على قول الله تعالى أي القرآن الكريم حاولوا تأسيسه على عقولهم، ثم أرادوا أن يؤيدَهم القرآن على ما ذهبوا إليه. أما القرآن الكريم فهو يقول: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ (الإسراء: ٢١)، ثم يبين جميع جوانب المسألة التي يتناولها، فلو اتخذ أحد جانبًا واحدًا فقط من جوانب قضية ما فلا شك أنه سيقول بأنه أخذها من القرآن الكريم، ولكن الحقيقة ليست كذلك، إذ لم يأخذها من القرآن بل

اتخذ القرآن جُنّةً له. فلو أراد أن يأخذها من القرآن لأخذها من جميع جوانبها، لا أن يأخذ أحدَ جوانبها ويترك سائر الجوانب الأخرى.

سافرتُ مرةً إلى إحدى المدن وكنت وقتئذ طفلًا صغيرًا أدرس في المدرسة. رأيت في بيت الطلبة طالبًا أحمديًّا وأضحكتني طريقة أكله لحلويات تقليدية حيث كان يحاول إخفاءها خوفًا من أن يراها أحد، فسألته: ماذا تفعل؟ قال: سمعت أن المسيح الموعود عليه السلام أيضا كان يحب أكل هذا النوع من الحلويات فأقتدي بسنته. فقلت له: كان حضرته يتناول دواء الكينين أيضا، فلماذا لا تتناوله؟

أخذ بعض الجوانب وترك بعضها

كلما أراد الإنسان التهرّب وإنقاذَ نفسه أخَذَ بعض الأمور التي يستفيد بها وترك ما سواها، ولكن طلاب الحق يأخذون جميع جوانب القضية بعين الاعتبار ولا يكترثون ما إذا كان ذلك يترك تأثيرًا مخالفًا لأفكارهم وميولهم الفكرية. خذوا مثلا هذا الاختلاف الذي حصل في الجماعة، لقد قال المسيح الموعود عليه السلام بأنني لست نبيًّا تشريعيا بل إنني نبي تابع للنبي ﷺ، وما أعطيتُ درجة النبوة إلا لكوني خادمًا للنبي ﷺ، ولكن قام بعض الناس قائلين: إذا كان لا بد لنبي أن يأتي بالشريعة فإن المسيح الموعود عليه السلام أيضا يقول بأنني جئت بأحكام الشريعة مما ثبت أنه نبي تشريعي. وعليه فقد أعرض هؤلاء عن الجانب الثاني الذي ذكره

حضرته. وقال البعض الآخرون بأنه عليه السلام كتب: لست بنبي، فاستنتجوا منه بأنه ليس بنبي أيًّا كان نوعه، وهكذا ترك هؤلاء أيضا الجانب الثاني من الموضوع، ولكننا نؤمن بكلا الجانبين ونقول بأن حضرته ليس بنبي تشريعي إلا أنه نبي تابع للنبي ﷺ.

فلو أخذ الذين اختلفوا بكلا الجانبين للقضية لما تعثروا. أما نحن فأخذنا بالجانبين الاثنين، أي أن حضرته نبي وتابع أيضا للنبي ﷺ. فالقاعدة العامة تقول بأن الذين لا يتحلون بالتقوى والأمانة، ولا يتمتعون بجرأة كافية لرفض شيء علنًا فإنهم يسلكون هذا الطريق بحيث يؤمنون ببعض القضية ويكفرون ببعض، ولكن الحق أنهم لا يؤمنون بشيء، كما يقول بعض من يُدعون مسلمين بأننا نعمل بقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ﴾ (النساء: ٤٤)، وإذا قيل لهم: لماذا تتركون العمل بالجزء التالي من الآية؟ قالوا: من يسعه العمل بالقرآن كله؟

أساس عقيدة المسلمين الخاطئة حول القدر الإلهي

هذا هو طريق الفتنة الذي نهى عنه النبي ﷺ. ولكن لم يبال المسلمون بهذا النهي فتعثروا عثارًا كبيرًا حيث اعتمد البعض في تأسيس معتقداتهم على الفلسفة اليونانية، وبعضهم اعتمدوا على معتقدات فلاسفة الهند أي على وحدة الوجود، وبعضهم على الإلحاد أو الدهرية.

كانت فكرة وحدة الوجود شائعة في الهند و لم يفرق المسلمون بينها وبين القدر الإلهي بل اعتبروها القدر الإلهي بعينه، ثم بنوا عليها معتقداتهم وظنوا أن الله تعالى بنفسه يُرغمهم على كل ما يقومون به أو يعملونه، أما الإنسان فلا ناقة له ولا جمل فيما يقوم به من أعمال وأفعال، وكأن الإنسان لم يعد إنسانًا بل صار إلهًا. وقال الآخرون بأنه لا دخل لله تعالى فيما يقوم به الإنسان من أعمال، بل كل شيء بيد الإنسان وتحت سيطرته. وكانت هذه العقيدة مبنية على الفلسفة اليونانية. إذن فإن المسلمين قد اعتمدوا على هاتين الفلسفتين في بناء معتقدهم عن القدر الإلهي، ثم أرادوا تقوية هذه الأنواع من الفلسفة البعيدة عن الحقيقة من خلال القرآن الكريم، حتى زعم المدّعون استنادًا إلى القرآن الكريم بأن جميع أفعال قيامهم وقعودهم وحركتهم وسكونهم وأكلهم وشربهم وأعمال السرقة أو الزنا والسلب والنهب والخداع كلها فعلُ الله لا أفعالهم.

ومنهم من قالوا بأنه ليس لله تعالى قدرة على أعمالهم بقدر ما يتمتع به رئيس حكومة برلمانية من صلاحيات. لكن مثل هذا الرئيس يتمتع على الأقل بصلاحية التوقيع على الأحكام لتكون سارية المفعول، ولكنهم يرون أن الله تعالى لا يتمتع بمثل هذه السلطة اليسيرة أيضا على أعمال الناس، بل هو ذاتٌ لا دخل لها في أمور الدنيا. وهذه الفئة أيضا

تقول بأن موقفهم المذكور ثابت من القرآن الكريم. ولكن الحقيقة أن الفريقَين على خطأ.

القرآن ينفي الفكرتين

إذن فإن القول بأن ما يقوم به الإنسان لا يقوم به هو في الحقيقة بل يقوم به الله تعالى؛ والقول بأن كل ما نعمل به هو عملنا نحن ولا يقدر الله تعالى على التدخل فيه، لهما فكرتان يمجّهما العقل ولا يستسيغهما لدقيقة واحدة. والزعم بأن إحدى هاتين الفكرتين موجودة في القرآن الكريم لهو زعم سخيف وتافه بل ولغو باطل. لقد قرأت القرآن الكريم بدءا من باء البسملة ووصولا إلى السين في كلمة الناس بحثًا عن إرشاده في هذه القضية فوجدت أن كل حرف من القرآن الكريم يرد على هاتين الفكرتين. وإن قرأه غيري فسيصل هو الآخر إلى نتيجة أن كل كلمة من كلمات القرآن -بدءًا من الألف في كلمة الحمد وحتى حرف السين من كلمة الناس- تدحض هاتين الفكرتين. وكيف يمكن أن يجيزهما القرآن الكريم وهما خاطئتان، تدمران الروحانية وتقضيان على الأخلاق. بل ذكر الإسلام بخصوص هذه القضية تعليمًا رائعًا ومفيدًا -بأسلوب لا يسع أي عقل أو علم أو فلسفة الاعتراض عليه- لدرجة أنْ لو فهمه أحد لصار من كبار الناس الربانيين.

يقول أحد الفريقين أن كل ما يقومون به هو فعل الله تعالى؛ فمثلا لو قَتَلوا أحدًا فكأن الله تعالى بنفسه أراد ذلك، فلا يستطيعون فعل شيء إزاءه.

ويقول الآخرون بأنه لا حاجة بالله تعالى للتدخل في الأمور التافهة مثل البصاق والتبول وغيرهما، بل إنّ تدخّلَ الله تعالى في مثل هذه الأمور التافهة يعدّ إهانة له.

لقد أسس الفريقان أفكارهما على آيات القرآن الكريم، وأذكر فيما يلي بعض تلك الآيات ليتضح لكم مدى هشاشة أساسهم واهترائه.

الرد على فكرة إرغام اللّه الناسَ على أفعالهم

يقدم القائلون بإرغام الله الناس على جميع أفعالهم من غير حولهم الآية التالية دعمًا لموقفهم: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٧). ثم يقولون: ما دام الله تعالى قد خلقنا وخلق جميع أعمالنا أيضا فقد ثبت أنه هو من يقوم بكل شيء، وبالتالي لا يسع أحدًا القولُ بأنه يعمل شيئًا. يظن هؤلاء أن هذه الآية حاسمة وقاضية بالقضية بشكل واضح وجليّ. ولكنهم في الحقيقة ارتكبوا الخطأ نفسه الذي ذكرته قبل قليل بحيث أخذوا ببعض الآية وتركوا بعضها، ولم يجمعوا بين الجزأين. تقول الآية التي تسبقها: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ (الصافات: ٩٦). إذا جاءت "ما" قبل الفعل حوّلته إلى مصدر وفق القواعد العربية، وأحيانًا تكون "ما" موصولة ومعناها "الذي".

فمَن فهمَ أن الآية تعني خلق الله تعالى لكم أعمالكم، اعتبر هنا "ما" مصدرية. ولكن يبدو من الآية السابقة أن "ما" ليست بمصدرية، فلو قرأنا الآيتين معًا عرفنا أنهما تعنيان معنى آخر، وهو كالتالي: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، تقول الآية الأولى لماذا تعبدون شيئًا تصنعونه بأيديكم؟ أما الثانية فتقول بأن الله تعالى خلقكم وخلق أعمالكم. ما علاقة الآية الثانية بالأولى؟ لا ترابط بينهما بل تنقض الثانية الأولى. فلو كان الله تعالى قد خلق أعمالهم أيضا فلماذا يسألهم قائلا: لماذا تعبدون الأصنام؟ فلا يمكن أن يكون هو المعنى المراد من الآية التي اعتبروها عمدة لهم. إنما تعني الآيتان: هل تعبدون أشياء تصنعونها بأيديكم في حين أن الله تعالى قد خلقكم وكل هذه الأشياء التي تصنعونها، أي الأصنام. وكما أن "ما" في الآية الأولى استخدمت مفعولًا به بعد الفعل، كذلك معناه في الآية الثانية "ما عملتم" أي "معمولكم" أي ما تصنعونه أو تعملونه. باختصار لقد فُسرت الآية بطريقة خاطئة، وتوضح الآية السابقة معاني الآية اللاحقة. ويتضح من هنا أن الآية تخلو من أي ذكر لخلق أعمال الإنسان.

المفهوم الصحيح للآية الثانية

يقدم أصحاب هذه الفكرة آيات أخرى أيضا، أتناول أهمها الآن، منها الآية التالية: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ٥١).

واستدلالهم عليها بقول الله تعالى بأنه لن يصيب الإنسان إلا ما كُتب له، فلا يمكن أن يتلقى الإنسان أزيد أو أقل مما كتَبَ الله له من الأكل والشرب واللباس والمال. أو إذا كتب الله تعالى قتل فلان بيد فلان، أو موت فلان بطريقة معينة وفي مكان معين، فلم يبق للإنسان خيار في ذلك. والحقيقة أن الأمر ليس كذلك؛ بل ذكر الله تعالى في هذه الآية وضع المسلمين أثناء حربهم مع الكفار فيقول بأنه لو أصيب المسلمون بقرح في الحرب قال المنافقون فرحين: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ﴾ لذلك لم نتعرض لهذه المصيبة، أما أولئك المسلمون فإنهم حمقى إذ خرجوا للقاء الذين هم أكثر منهم جندًا وقوة. يرد الله تعالى على قولهم فيقول بأنكم أنتم الحمقى والعميان، أتظنون أن المسلمين ينهزمون ويغلبهم الكفار؟ كلا، لن يحدث ذلك أبدًا. لماذا؟ لأن الله تعالى قد كتب سلفا بأن رسله سيغلبون حتمًا، فقد قدّر انتصار المسلمين.

فلا تخبرنا الآية عن صدور جميع أعمال الإنسان وفق حكم الله تعالى، بل تذكر تقدير غلبة المؤمنين الكفارَ وانتصارهم عليهم. ولا يعني ذلك أن الله تعالى قدّر صدور أعمال السرقة والنهب والخداع والكذب كلها من الناس وفق ما كتبه سابقا.

يقول الله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة:٢٢) إنّ "كتب" هنا لا يعني بأن الله تعالى قد كتب الأعمال الإنسانية، بل المراد منه أن الله تعالى قد قرر أن يكون رسله والمؤمنون بهم هم المنتصرين.

المعنى الصحيح للآية الثالثة

ثم يقدمون الآية التالية أيضا:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف:١٨٠).

يقولون مستدلين بهذه الآية بأن الله تعالى يقول إنه قد خلق لجهنم كثيرًا من الإنس والجن. فما دام الله تعالى قد خلق كثيرًا من الناس لجهنم فلا يسع أحدًا منعُ هؤلاء -الذين خلقوا لجهنم- من ارتكاب السيئات والموبقات، بل لا بد أن يأتوا بأعمال تؤدي بهم إلى الدخول في جهنم.

ولكنهم أخطأوا في فهم هذه الآية أيضا. يستخدم الحرف "لام" في اللغة العربية لبيان السبب أحيانًا، وأحيانًا أخرى لذكر النتيجة، وهذه الأخيرة تسمى "لام العاقبة" وهي نفسها مستخدمة ههنا حيث قيل: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾، ولا تعني بأننا خلَقَنا الجن والإنس لندخلهم في جهنم، لأن ذلك يتناقض مع الآيات الأخرى، فمثلا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٧)، ويقول الله تعالى عن الذي صار عبدًا له: ﴿وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٣١) أي مَن صار عبدًا لله تعالى دخل الجنة.

تؤكد هذه الآيات أنه لا يمكن أن يكون معنى الآية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ...﴾ أن الله تعالى قد خلق كثيرًا من الناس من أجل إدخالهم جهنم. بل الحقيقة أن الله تعالى خلق الإنسان ليصير عبدًا له فيستحق جنته. فإذا كان فهمهم لهذه الآية ليس صحيحًا فلا بد أن يكون للآية معنى آخر وهو أن اللام في "لجهنم" هي لام العاقبة، ومعنى الآية: أننا خلقنا الناس للجنة، ولكن كثيرًا منهم استحقوا دخول جهنم بدلا من الجنة. ولقد وردت "اللام" بهذا المعنى في اللغة العربية كثيرًا، وقد استخدمت في القرآن الكريم أحيانًا بهذا المعنى. أما في شعر العرب فأقدم لكم النظير التالي:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها

أي نجمع الأموال ليأخذها الورثة فيما بعد، ونبني بيوتنا لكي يدمرها الدهر ويخربها.

والظاهر أن الأموال لا تجمع لهذا الغرض ولا تبنى البيوت لهذا الهدف، ولكن هي النتيجة من ورائهما. فيعني الشاعر بأن الناس يجمعون الأموال في حياتهم ولكن أقاربهم وذويهم يتقاسمونها فيما بينهم بعد وفاتهم، كذلك يبني الناس بيوتًا للسكن ولكن النتيجة أن الدهر يخربها ويدمرها.

أما في القرآن الكريم فهناك مثال واضح في سورة القصص إذ يقول الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (القصص:٩).

فالظاهر أن آل فرعون لم تكن نيتهم من أخذ موسى أن يصبح لهم عدوًّا وحزنًا، بل توضح الآية التالية أن نيتهم كانت معاكسة لهذه الفكرة إذ قالت امرأة فرعون له: ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص:١٠)؛ فمعنى الآية أن آل فرعون التقطوه ولكن هذا الطفل صار عدوًّا لهم في نهاية المطاف وسبّب لهم الهمّ والحزن. وهذا هو معنى اللام الواردة في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾. فلا يصح الاستدلال من هذه الآية بأن الله تعالى يجعل البعض أهل الجنة، والبعض الآخر أصحاب الجحيم قسرًا.

المفهوم الصحيح للآية الرابعة

ويقدمون أيضا الآية التالية:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ (يونس:٨٩).

لا تعني هذه الآية أن الله تعالى قد أعطى الناس أموالا وثروات من أجل إضلال الناس. بل استخدمت هنا أيضا "لام العاقبة" كما في الآية السابقة، والمفهوم الصحيح هو: ربنا لم تعطهم ثروات وأموالا لإضلال الناس، ولكنهم أخذوا يستخدمونها لهذا الغرض.

المفهوم الصحيح للآية الخامسة

يقولون: هناك آية تسلط الضوء الكافي على ما ذهبنا إليه وهي:

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء :٧٩).

يقولون: لاحظوا كيف اتضح بكل جلاء أن الحسنة والسيئة كلتيهما من عند الله.

لا يفهم هؤلاء أن المقصود هو أن نتائج كل فعل -حسنًا كان أم سيئًا- تظهر من الله تعالى. ومَن يستطيع إنكار أن جزاء كل عملٍ حسنٍ أو عقابَ كل عمل سيئ هو من الله تعالى؟ وعليه فلو قلنا أنّ الحسنة والسيئة كلتيهما من الله فلا حرج في قولنا هذا، لأن أعمال الخادم تنسب أحيانًا إلى سيده سواء بقصد سيده أم لا. مثلا لو آذى مولى أحدٍ بعضَ الناس فمع أن سيده لا يهدف إلى إيذاء الناس إلا أن المتضرر في بعض الأحيان يشكوه قائلا: لقد تعرضت منكم لأذى، فلقد نُسِب هنا أذى المولى إلى السيد. فلو شرحتُ الآية الآن على ضوء القاعدة المذكورة كان مفهومها كالتالي: بما أن الله تعالى خالق تلك الأشياء التي نشأ الإثم جراء سوء استخدامها، لذلك قيل عن الله تعالى بأن الحسنة والسيئة كلتيهما من عنده. وهذا المفهوم ينفي فكرة الجبر والإكراه في الأعمال، ولا يمكن أن يستنتج بحال من الأحوال أن الله تعالى يُكره الناس على

ارتكاب السيئة، إنما يُستدل منه أن الله تعالى أودع الإنسان قوى وقدرات يسيء الإنسان استخدامها فيرتكب الزنا أو السرقة وغيرها من الأعمال السيئة.

والمفهوم الصحيح لهذه الآية هو ما بينتُه سابقا وهو أنها لا تذكر الأعمال الحسنة أو السيئة بل تحتوي على ذكر العسر واليسر والألم والراحة؛ يقول الله تعالى للمنافقين في بداية هذه الآية: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ﴾ أي أن الله تعالى قد أصدر عقوبة الموت بحقكم جراء أعمالكم السيئة، ولا يسعكم فعل شيء إزاء هذا الأمر بعد صدور القرار المذكور. ثم يقول الله تعالى بأن هؤلاء الناس ينسبون الحسنةَ، أي اليسرَ والراحةَ، إلى الله تعالى، أما العسر والأذى الذي يتعرضون له فينسبونه إليك، وهذا يدل على حماقتهم لأنه لا دخل لك فيما يتعلق بالجزاء والعقاب. لا شك أن العسر واليسر والألم والراحة من ناحية النتيجة النهاية إنما تأتي من الله تعالى. أي أن الله تعالى وحده يقرر ماذا يجب أن يتلقى أحد من يسر وراحة لقاء عمله الحسن وماذا ينبغي أن يتعرض له من العسر والآلام نتيجة بعض أفعاله القبيحة، ولا علاقة لك بهذا الأمر، بل هو يخص الله تعالى ولم يفوض الله تعالى هذا العمل إلى أحد غيره. لذلك يقول الله تعالى ما لهؤلاء القوم لا يفهمون مثل هذا الأمر الواضح. ولقد سُلّط الضوء أكثر على هذا الموضوع في الآية التالية أيضا حيث قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ

وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: ٨٠). فلو كان معنى الآية الأولى أن جميع الأعمال حسنة أم سيئة إنما هي من الله تعالى لما كان لهذه الآية الأخيرة أي معنى. ولا تكون الآية الأخيرة ذات معنى إلا إذا فسرنا الآية الأولى على نحو ما ذكرناه. وستعني الآية الأخيرة في هذه الحالة أن الجزاء الحسن كله من الله تعالى لأنه يحفّز على الخير، والألم والأذى الذي يتعرض له الإنسان فهو منه لأنه نتيجة لخطأ يرتكبه الإنسان، ولا يحفّز الله تعالى الإنسان على الخطأ.

المفهوم الصحيح للآية السادسة

ثم يقولون: هناك آية أخرى قد حسمت القضية وهي: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

يقولون: يتضح من هذه الآية أن كل الأعمال والأفعال من الله تعالى.

والرد على ذلك كالتالي:

أولا: كما ذكرتُ في سياق شرح الآية السابقة أن هذه الآية أيضا لا تذكر الأعمال بل تذكر جزاء الأعمال. تتكلم هذه الآية عن غزوة أحدٍ، حيث خرج المنافقون أولا مع المسلمين لمحاربة الكفار. ولكن لما حان وقت القتال رجع هؤلاء، وهم ثلاثمئة من بين نحو الألف، وهكذا ظنوا وكأنهم نجحوا في خداع المسلمين فأوقعوهم في الحرب المدمرة، إذ

يصعب عليهم الرجوع بعد مواجهة العدو. ثم لما وضعت الحرب أوزارها بدأوا يستهزئون بالمسلمين قائلين: عبثًا عرّضتم أنفسكم للخطر والهلاك. فقال الله تعالى: يا أيها الجهلة، أتظنون أنكم أوقعتم المسلمين في الحرب مع الكفار؟ كلا، بل لم يخرج هؤلاء للحرب إلا على أمل نصرٍ وإمدادٍ مِنّا. فاسمعوا وعوا، أنه لو كنتم تعيشون في قلاع محصّنة -ناهيك أن تكونوا في بلدة غير مسوَّرة كالمدينة- لما خاف الذين فُرض عليهم القتال مِن الخروج للحرب ضد الكفار، ولَخَرجوا حتمًا للقاء العدو.

إنّ "كُتِبَ" هنا، لا تعني: "قُدّر"، بل تعني "فُرِض" كما وردت في الآية التالية: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٤)، ولا تعني كلمة "القتل" في: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ﴾ أن يُقتَلوا، بل تعني: أن يَقتُلوا. ولقد وردت هذه الكلمة بالمعنى المذكور في القرآن الكريم كثيرًا، ومنها: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (البقرة:١٩٢)، ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ﴾ (الإسراء:٣٤)، ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٣٢). باختصار، أُخبِرنا في هذه الآية أن المؤمن يشعر بالراحة والسرور في طاعة أوامر الله تعالى، ولا يُظهر نوعًا من الكسل أبدًا. لم تكن المدينة قلعة محصنة -فلو لم يخرج المسلمون للقاء العدو خارجَها لدخلها العدو- ولكن حتى ولو كان المسلمون في قلاع محصّنة، وأُمِروا بالخروج للهجوم، لأدوا واجبهم بكل حماس وما استاؤوا منه.

ردّ فكرة التعطيل الإلهي

إذن، لا يفهم من الآيات السابقة إكراه الله تعالى الإنسانَ على كل فعل، وبالتالي يَبطل ادعاءُ القائلين بأن كل فعل الإنسان هو فعل الله. أما الذين يقولون بأن الله تعالى لا يفعل شيئا وليس بيده شيء ولا دخل له في أعمال الإنسان فقد ثبت بطلان ادعائهم أيضا من القرآن الكريم. خذوا مثلا الآية التالية؛ يقول تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة:٢٢).

لاحظوا الآن، يُبعث كل نبي بحالة ضعفٍ دنيوي شديد ولكن الله تعالى يتولى نصره حتى لو جابهه العالم بأسره وسعى للقضاء عليه. وهذا ما حدث على صعيد الواقع دومًا، فما غلبت الدنيا قط نبيًّا من الأنبياء، واتضح منه أن لله دخلًا وتحكّمًا في أعمال الإنسان، وإلا فما السبب يا ترى أن الدنيا لم تحقق قط غلبتَها على الرسل؟ وهكذا ثبت بطلان هذه الفكرة أيضا.

الخلط بين علم الله تعالى والقدر

الحقيقة أن الذين قالوا: إن القدر الإلهي يعني أن ما يجري في العالم هو مِن الله ولا دخل لنا فيه بشيء، فإنهم يؤسسون فكرهم على مسألة وحدة الوجود، غير أنهم تعثروا في قضية أخرى عرضت المسلمين لفتنة أشدّ، وهي أنهم خلطوا بين علم الله تعالى وبين مسألة القدر الإلهي، في

حين أنهما قضيتان منفصلتان. والدليل الواضح على ذلك اسمان مختلفان لله تعالى وهما العليم والقدير، فإذا كان العلم الإلهي وقدَره اسمان لمسمى واحد فلماذا يُسمّى الله تعالى بهذين الاسمين المختلفين؟ القدر يتعلق بالقدير أي صاحب القدرة، أما العلم فيتعلق بالعليم أي صاحب العلم، ولكن لم يفهم هؤلاء هذا الفرق. يقول هؤلاء: خرج زيد للسرقة. ألم يكن الله تعالى يعلم بأن زيدًا سوف يخرج للسرقة؟ فلو كان الله تعالى يعلم ذلك، ثم لا يخرج زيد للسرقة لثبت أن علم الله ليس صحيحًا، مما دل على أن زيدًا كان مضطرًّا لها، لأنه لو لم يفعل ذلك لبطل علم الله تعالى. وبهذه الحيلة يسيطرون على عقول الناس ويجبرونهم على الاعتراف بأن الله تعالى يدفع الإنسان إلى اقتراف كل فعل.

الحقيقة أن هؤلاء الجهلة فهموا القضية بصورة معاكسة. نقول: ليس صحيحًا القول بأنه لا يسع زيدًا الكف عن السرقة بحجة علم الله تعالى بإقدامه عليها، بل الحقيقة هي أنه ما دام زيدٌ لن يتجنب السرقة، فلذلك كان الله تعالى يعلم بأنه سيسرق حتمًا. لنضرب مثالا على ذلك؛ لو جاءنا أحد علمْنا من خلال الحديث معه أنه سينفّذ عملية نهبٍ في مكان معين، فبعد هذا العلم هل يمكن لعاقلٍ القول بأنه اضطر لذلك الفعل لأننا علمنا بذلك، وبالتالي فقد دفعناه إلى تنفيذ هذه العملية؟ كلا! والحال نفسه في كون الله تعالى عليمًا. ما أزمع عليه زيدٌ اليوم كان فاعلَه بدون

إجبار من الله تعالى، ولكن الله تعالى عليم، ويعلم كل شيء، فكان يعلم بأن زيدًا سوف يفعل كذا وكذا، وبما أن زيدًا كان يأبى إلا السرقة لذلك كان الله تعالى يعلم بأنه سيفعلها، كما أن الله تعالى يعلم عن الذي أزمع على تجنب السرقة، بأنه سيتركها. فلا يدفع علم الله تعالى أحدًا إلى ارتكاب فعلٍ ما، بل إن فعله هذا يكون في علم الله تعالى.

توضيح أكثر

لعل بعض الإخوة المزارعين لم يستوعبوا هذه القضية جيدًا، لذلك فإنني أوضّحها مرة أخرى. يقول البعض بأن كل ما نقوم به من عملٍ يدفعنا الله تعالى إليه أصلا. ويبرهنون على ذلك بقولهم: إن الله تعالى كان يعلم بأن عبد الله سوف يسرق أو ينهب مالا في يوم كذا، فلو صدّقنا الملحدين الذين ينكرون وجود الله تعالى لاستطعنا القول بأن ما يقوم به عبد الله إنما يقوم برضاه وبتفكيره. ولكن بما أن الله تعالى موجود، وهو يعلم أن عبد الله سيفعل كذا في يوم كذا، فإن لم يفعله عبد الله في ذلك اليوم لكان علم الله تعالى به خاطئا، مما يعني أن الله يضطره لينفذ السرقة أو عملية النهب أو يزني في ذلك اليوم.

نقول: من الخطأ القول: إن عبد الله لا بد أن يسرق لأن الله كان يعلم بأنه سيسرق في يوم كذا؛ بل الحقيقة أن عبد الله كان مزمعًا على تنفيذ السرقة في ذلك اليوم، لذلك كان ذلك في علم الله تعالى. فلو كان

مزمعًا على عدم السرقة، ولكن كان في علم الله تعالى أنه سيسرق، لكان ذلك جهلا، وما عُدَّ ذلك علمًا بحال من الأحوال.

فلا ينفّذ السارق عملية السرقة لأن ذلك كان في علم الله تعالى، بل عِلم الله تعالى ذلك لأن السارق كان مزمعًا على السرقة.

باختصار، نشأ هذا الانخداع جراء الخلط بين علم الله وقدَره، في حين أنهما صفتان منفصلتان ومختلفتان عن بعضهما البعض.

لماذا لا يمنع الله الإنسان من ارتكاب السوء

هنا ينشأ السؤال: لما كان الله تعالى يعلم أن فلانًا سيقترف عملا سيئا في وقت معين فلماذا لا يمنعه من ارتكابه؟ فلِمَ لا يكفّ الله فلانًا الذي سيسرق عن سرقته مثلًا؟ فلو جاءنا قاطع الطريق المدعو "سندر سنغ" وقال لنا بأنه سينفذ عملية السرقة والنهب في بيت المدعو "جيون لال" في وقت كذا، أفلا نكون مجرمين إذا جلسنا صامتين بعد العلم بها؟ بل سنكون مجرمين من الناحية الشرعية، والأخلاقية، والاجتماعية، ومن ناحية قوانين البلد الذي نعيش فيه أيضا، رغم أن هناك إمكانية أن نكون مشغولين لدرجة أنْ يتعذر علينا إخبار "جيون لال" عن موعد هذه السرقة، أو قد نكون مهدّدين بالقتل لو أفشينا هذا الخبر. فمع أننا مهددون بالأخطار إذا حاولنا الحيلولة دون هذا السارق وعمليته سنكون مجرمين إن لم نتحرك لمنعه من السرقة، أو إن لم نُطلِع بعض الناس

القادرين على منعه منها، ولكن الله تعالى -الذي هو القوي والقادر، ولا يخاف أحدًا، ولا يسع أحدٌ أن يضر به- إن لم يوقف هذا السارق من السرقة، ولا يخبر أهل ذلك البيت الذي ستتم السرقة فيه حتى يتخذوا الإجراءات اللازمة لحفظهم، لأشير إليه بأصابع الاتهام أكثر من العباد. أليس من العجيب أن يؤاخَذ الإنسانُ على عدم تحركه أو عدم إخباره لمن يسعه الحيلولة دون هذه السرقة رغم اضطراره ورغم المبررات لأعذاره، أما لو كان الله تعالى يفعل الفعل نفسه فلا يُتَّهم بشيء؟!

هذا الاعتراض نتيجة قلة التدبر، لأنه من الخطأ أن يُضرب لله تعالى هذا المثل. وكان اختراع هذا المثال نتيجة لعدم فهم الناس الهدفَ من خلق الإنسان. أما المثال الصحيح المنطبق على علاقة الله بالعباد فهو مثال المشرف والمراقِب في غرفة الامتحان، فهل يجوز للمراقب كلما وجد طالبًا يخطئ في الإجابة أن يوقفه ويخبره عن الجواب الصحيح؟ كلا. لقد خُلق الإنسان في هذا العالم ليُبتلى ويُعطى له جوائز عند نجاحه في الابتلاء، ولكن لو نُبِّه عند كل خطأ لما كان هناك معنى للامتحان، وبالتالي لن يستحق أية جائزة. إن علاقة الله تعالى مع عباده في هذا المجال تشابه علاقة المراقب أو المشرف في غرفة الامتحانات الذي كان يدرك أن الطلاب يكتبون إجابات صحيحة وخاطئة أيضا. فلا يخالف قدوسية الله تعالى عدم منع العباد من أفعالهم السيئة على علمه بها، بل يتطابق مع الهدف الذي خُلق الإنسان لأجله.

أقوال الصوفية

لقد انتشرت في المتصوفين أفكار عجيبة مردها عدم فهمهم الفرق بين العلم والقدر الإلهي. وأصبحوا يطلقون بعض الجمل الخاصة التي تُعدّ آية على صلاحهم وتقرُّبِهم إلى الله تعالى، ويحاولون من خلالها إثبات علمهم وعظمتهم على الجهلة، إلا أنه لا يمكن لعاقل أن يقع في فخهم. فأخبركم عن قصة حول هذا الأمر، وهي لا تعدو كونها نكتة أو فكاهة.

تعود هذه القصة إلى سنة ١٩١٠م. كنت راجعًا من لاهور في إحدى المرات فرافقني صديقان أو ثلاثة إلى محطة القطار للوداع. فلما أردنا الدخول إلى إحدى مقصورات القطار وجدنا الناس يتزاحمون أمامها. قال لي "ميان محمد شريف" -الذي يعمل حاليًا مساعدًا إضافيًا للمفوض في أمرتسر- ألاّ أجلس فيها لأن بها أحد المرشدين المعروفين ومريديه، فلعلهم يسيئون إليك (وكان ذلك المرشد من أشهر المرشدين في منطقة البنجاب آنئذ). فبحثنا عن مقصورة أخرى ولكن لم نجد في إحداها مكانًا للجلوس، فاقترح ميان محمد شريف الركوب في الدرجة الثالثة لأننا لم نجد مقعدًا فارغا في الدرجة الثانية، إلا أن الدكتور خليفة رشيد الدين أصرّ على الركوب في المقصورة التي كان بها هذا المرشد المذكور وأتباعه دون أي خوف من هؤلاء. كنت أتمنى ذلك سلفا فدخلت تلك المقصورة وجلست. فلما تحرك القطار نزل جميع مريديه

ولم يبق فيها إلا نحن الاثنان. كان القطار واقفًا على المحطة حين سأله مريدوه إذا كان يريد أكل شيء، إلا أنه رفض قائلا: لا أشعر بالجوع، بل لن آكل شيئا قبل بلوغي أمرتسر. فلما انطلق القطار خلع المرشد الثوب الأخضر الذي كان يرتديه مغطيًا به عمامتَه وجانبًا من وجهه، ثم نادى خادمه الذي كان في مقصورة الخدم المجاورة، وسأله إذا كان لديه شيء للأكل. فأجاب بالنفي، فقال: ولكنني أشعر بالجوع الشديد. فقال الخادم: إذن سأجلب لك الشاي عند وصول القطار إلى محطة "ميان مير". فقل له المرشد: أعطني إذن الفواكه المجففة التي عندك. فناوله شيئا منها مربوطة في منديل فوضعها المرشد عنده، ثم نظر إليّ وسألني: ما اسمك؟

قلت: اسمي محمود أحمد.

قال: إلى أين أنت ذاهب؟

قلت: إلى قاديان.

قال: هل تسكن في قاديان أم تقصدها لعمل ما؟

قلت: أنا من سكانها.

انتبه لدى سماعه هذا الرد ثم سأل: هل أنت قريبٌ للسيد مرزا؟

قلت: نعم، لي قرابة معه.

قال: ما هي العلاقة التي تربطك بالسيد مرزا؟

قلت: أنا ابنه.

أبدى سروره وقال كنت متشوقًا للقائك. فلما سمعت كلماته هذه استغربت لأنه كان عدوًّا لجماعتنا، وكان قد أفتى أن من تكلم مع أحمديٍّ فقد طُلقتْ زوجته، إلا أنني لزمت الصمت وانتظرت حتى أعرف إلى أين يتجه مجرى حديثه. أخرج المرشد الفواكه المجففة وجاء ليجلس في المقعد بإزائي، ثم قدمها لي قائلا: كُلْ أنت أيضا. كنت مصابًا بالزكام والسعال فاعتذرت لأن حنجرتي كانت تؤلمني. قال المرشد: كلْ قليلا، فلن يحدث لك شيء، إلا أنني رفضت موضّحًا أن معاناتي ستزداد إذا لم ألتزم بالحيطة في هذه الحالة. فقال المرشد: لا يحدث إلا ما يريده الله، أما ما سواه فأحاديثٌ فارغة. كنت أنتظر أن يتكلم شيئا عن علومه الخاصة حتى أعرف شيئًا من أحوال هؤلاء المرشدين، فقلت له: لقد أخبرتني بهذا الأمر متأخرًا جدًّا، إذ لو أخبرتني عن ذلك في لاهور لتجنبنا -نحن الاثنين- الخسارة، أما الآن فقد أضعنا نقودا على شراء التذاكر، فلو كان مقدّرًا لك الوصول إلى أمرتسر ولي إلى قاديان لكان الله تعالى قد أوصلنا بدون التذاكر أيضا، فلم يكن ثمة داعٍ لإنفاق مبلغ على شراء التذاكر. فقال المرشد: لا بد أن نتخذ الأسباب أيضا. فقلت له: لقد اعتذرت عن أكل شيء مراعاة لهذه الأسباب نفسها. فقال: هذا ما قصدت من كلامي أنا أيضا. وأنا إلى الآن لم أفهم كيف كان قصده هو نفس قصدي أنا؟!

لقد جرى الحديث مع هذا المرشد في أمور أخرى أيضا، أما عن مسألة القضاء والقدر فلم نتحدث إلا بهذا القدر الذي يوضح بأن

المرشدين في ذلك الوقت كانوا يتخبطون في مثل هذه الأفكار الخاطئة. ولكن كما أوضحت، فإن هذه الأفكار باطلة، ولا تتوافق مع القرآن الكريم.

معنى أقوال بعض الناس

يقول بعض الناس: لا تضيعوا وقتكم في الجهود العقيمة إذ لا بد أن يلقى الإنسان ما قُدّر له.[1]

يظن بعض الناس بسبب هذه الأقوال أن بذل الجهود في جميع الأمور ممنوع. فلو كان هذا هو معنى كلامهم سألتهم: ألا يمسكون باللقمة عند تناولهم الطعام فيضعونها في فمهم ويمضغونها ويبلعونها؟ أفلا يستلقون للنوم؟ أم أنهم يجلسون ليل نهار في وضع واحد؟ فإذا كان الله يدفع الناس إلى كل عمل يريده فماذا يعني قولهم: لا تسعوا؟ وما دام الله تعالى –وفق هذا الادعاء– هو دافع كل واحد إلى بذل الجهد، فلماذا يُمنع الإنسان من السعي إذن؟

---

[1] قال أحد الإخوة: ليس اللّه تعالى كالمشرف على الامتحانات فحسب بل هو الرحيم والكريم أيضا.
ينبغي أن يتذكر أن صفتيه الرحيم والكريم تظهران عند تصحيح الأوراق الامتحانية، وليس صحيحًا أن يملَى على التلميذ أثناء الامتحان الإجابة الصحيحة لكل سؤال. منه

المعنى الصحيح لكلام الصوفية

لم يفهم الناس معنى الأقوال المذكورة. الحقيقة أن بعض الناس ينهمكون في الأمور الدنيوية لدرجة أنها تصبح أكبر همّهم ويبذلون فيها كل ما في وسعهم، مثلا يعملون في محلهم ثماني أو تسع ساعات وعندما يعودون إلى بيوتهم يظلون مشغولين في أموره الحسابية؛ أو إذا كان أحدهم فلّاحًا فإنه ما يزال يفكر كل حين وآن في النتائج إن حصل كذا وكذا من الأمور. لقد منع الأولياء من هذه الأفكار ومن السعي العقيم، أما السعي الحقيقي فلا يمنعون منه. يحتاج الإنسان إلى تأمين فراش له في الشتاء ولكن لو دبر أحد لنفسه ثلاثين فراشًا وعشرة ألحفة فسنقول إنه عبثًا يفعل، وهذا مثال على السعي العقيم، لأن فراشًا واحدًا يكفيه، وهذا ما يقوله الصوفية، فإنهم أيضا يقومون بالسعي الحقيقي.

فئة أخرى

إضافة إلى الفئتين اللتين ذكرتهما، هناك فئة أخرى سلكتْ طريقًا وسطا إلا أنه أيضا يخالف الإسلام، إذ يقولون: كل عمل يجري فيه القدر الإلهي والتدبير أيضا. ومفاد كلامهم هو أن الله تعالى قد أودع كل شيء قوى؛ فمثلا أودع النار قوة الإحراق والماء قوة شفاء الغليل. كذلك قدّر الله تعالى أن يحترق الخشب في النار، وأن ينصهر فيها الحديد والنحاس

والفضة والذهب، أما صياغتها في قالبٍ معين فهو من عمل الحدّاد أو الصائغ، وهذا ما يسمى بالتدبير. فقد أودع الله تعالى في كل شيء قوى وهي القدر الإلهي، أما إذا استخدمها الإنسان فهو تدبير، وهذان الأمران موجودان في كل عمل من الأعمال.

هذا صحيح، ولكن بما أن أهل هذه الفئة يتوقفون عند هذا الحد ويحصرون أفكارهم في هذه النقطة فقط لذلك نقول بأن نهجهم أيضا ليس صحيحًا، ولا يختلف قولهم عن قول عالمٍ مع الفارق أن العالم يتقدم بالأمر قليلا فيقول مثلا: ما هو السبب في انصهار الفضة؟ وكيف يتم انصهارها؟ ولكنه في النهاية سيقول لا أعلم السبب، بل الذي أعلمه هو أن كل ذلك يجري وفق قانون غير متبدل ومحيط بالكلّ. أما أهل الفئة التي نتحدث عنها فينسبون من البداية جميع أمور هذا العالَم إلى قانون يسمى بالقدر الإلهي.

الانخداع بسبب الاسم الخاطئ

إن مفاد بحثي في هذا الأمر هو أن هذه المسألة صعبت عليهم واختلطت لأنهم أعطوها أسماء خاطئة. وكثيرا ما يؤدي الاسم الخاطئ إلى الانخداع، فمثلا لو كان اسم أحد: "صالح"، وقيل إن صالحًا ارتكب عملا سيئًا فسيتفاجأ السامع من قوله ويتعجب منه لأنه من ناحية يصفه بالصلاح ومن ناحية أخرى يعيبه. فلو كان لاسم مرتكب السوء معنى معروف لأدى الكلام عنه إلى إساءة الفهم؛ أما لو لم يكن لاسمه معنى فلا وجه للانخداع

مثلا إذا قيل إن "رُلدُو"[1] سرق أو نهب فلن يتعجب أحد عند سماعه هذه الجملة، وإذا قيل أن "رُلدُو" صالح ومن أحباء الله فلا يثير ذلك العجب أيضا. أما لو قيل إن عبد الله قد أشرك فلا بد أن يثير ذلك حيرة شديدة.

تسمية خاطئة لمسألة القضاء والقدر

إن التسمية الخاطئة ذات المعاني المعينة يمكن أن تؤدي إلى إساءة الفهم. وهذا ما حصل مع هؤلاء. إن كلمة التقدير صحيحة أما الأسماء التي يختارونها مقابل ذلك فإنها لا تعطي إلا معاني معاكسة. فمثلا يسمي بعض الناس فعل الإنسان تدبيرًا مقابل قدر الله تعالى، وبعضهم يسمونه الجبر والاختيار في حين أنها تسميات خاطئة، وأثرت معاني مثل هذه التسميات الخاطئة في مفهوم مسألة القضاء والقدر أيضا، مما أدى إلى سوء فهم هذه المسألة كلها.

فخطؤهم الأول هو أنهم سموها بتسمية خاطئة، وليس هذا فحسب، بل جميع التسميات التي سموا بها شقّي هذه المسألة خاطئةٌ أيضا، مثل:

١) التقدير والتدبير

٢) الجبر والاختيار

٣) القدرة القديمة والقدرة الحادثة

فإن جميع هذه الأسماء لا تعبّر عن المفهوم الصحيح والكامل لهذه المسألة بشكل إجمالي.

---

[1] اسم بلا معنى معين في اللغة البنجابية. (المترجم)

كلمة التدبير مقابل القدر خاطئة

على سبيل المثال فإن التقدير تسمية صحيحة، ولكن من الخطأ تسمية فعل الإنسان مقابلها بالتدبير، لأن الله تعالى أيضا يقوم بالتدبير لقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ (السجدة: ٦). يتضح من هذه الآية أن الله تعالى أيضا يقوم بالتدبير، أما هؤلاء فيرون أن التدبير هو ما لا دخل فيه لله تعالى.

وإن كلمتي الجبر والاختيار الأكثر استخدامًا في هذه القضية لا تثبتان من القرآن الكريم. إذ يتضح من القرآن الكريم أن الله تعالى "الجبار" أي المصلح. أما هؤلاء فيقولون إن الجبر يعني إكراه الإنسان على عمل ما، ولا يصح ذلك بحال من الأحوال. وجبَر العظم في اللغة العربية أصلحه من كسرٍ، وإذا نسبت هذه الكلمة إلى الله تعالى كان معناها: الذي يصلح ما اعوج من أمور العباد، ومعناها الآخر: من يقيم عزّته بهضم حقوق الآخرين، ولكن هذا المعنى لا يستقيم إلا عند استخدام الكلمة عن الناس، أما عن الله تعالى فلا يليق لأن الله تعالى مالك كل شيء فلا يصح القول عنه بأنه يقيم عزّته من خلال غصبه حقوق الآخرين.

إضافة إلى ذلك إن لفظة التدبير لا تلقي ضوءاً كاملًا على المعاني التي أريد الإشارة إليها. لأن معنى التدبير في اللغة العربية هو تقديم الشيء أو

تأخيره، والمراد منه ترتيب الشيء وتنسيقه، وهذا المعنى لا يلقي ضوءاً على هذه المسألة.

أما الاختيار فمعناه أخذ شيء بعد الإعجاب به. فإذا كان الله تعالى قد أعطى للإنسان هذا الخيار بأن يأخذ ما يعجبه ويعمل ما يراه صحيحًا فلماذا يعاقبه على بعض أفعاله؟ فثبت أن هذه الكلمة أيضا خاطئة.

التسمية الصحيحة

الكلمات الثابتة من القرآن الكريم هي: القدر، والتقدير، والقضاء، والتدبير الإلهي. وقد جعل الله تعالى للإنسان مقابلها كلمتي "كسب" و"اكتساب". فبحسب القرآن الكريم تسمى هذه المسألة "التقدير الإلهي"، والاكتساب أو القدر الإلهي، والكسب أو القضاء الإلهي. ونظرًا إلى هذه الأسماء أشرح هذه المسألة الآن.

اعلموا أن القرآن الكريم استخدم كلمتي الكسب والاكتساب للإنسان مقابل القدر الإلهي. ومثل هذه الكلمات تستخدم للإنسان ولا يمكن استخدامها لله تعالى، وذلك لأن معنى الكسب هو طلب الشيء وبذل الجهد من أجل الحصول عليه. أما الله تعالى فلا يطلب شيئًا أو يبذل الجهد للحصول عليه، بل كل شيء مطواع له، ورهن إشارته لتحقيق رضاه تعالى. ثم إنه منـــزّه عن الجهد والتعب، بل يقول كن

فيكون، فلا يمكن استخدام كلمة الكسب في حقه، ولا يمكن أن تدلّ كلمة أخرى على هذا التمايز الذي دلت عليه هذه الكلمة.

بعد تبيان حقيقة هذه الكلمات مختصرًا أتناول هذا السؤال: ماذا يثبت من القرآن الكريم حول كيفية معاملة الله تعالى عبادَه؟ هل يصدر كل عمل الإنسان وفق أمر الله تعالى له؟ أي هل الله تعالى هو مَن يجعل الناس يقومون بالصدقة وأعمال الخير، ويتحلون بالأخلاق الحسنة والمواساة، أو يقومون بالسرقة أو النهب أو الخداع، أم أنه ﷻ ترك هذا الأمر على العباد ليكسبوا ما يريدون، ثم ينالوا جزاء على ما اكتسبوه من أعمال؟

لقد ثبت الأمران الاثنان من القرآن الكريم.

لا يكفي الإيمان بالقدر باللسان فقط

قبل تناولِ هذا الموضوع أرى ضروريًا إخبارَكم بأن المسلمين قد تعثروا عثارًا مهولا في هذه القضية؛ فقد ظنوا أنه يكفي الإيمان اللفظي بالقدر، بينما كانت ثمة حاجة ماسة أن يستوعبوه ويفهّموه للآخرين، لأن الله تعالى جعله شرطًا للإيمان، فما دام هو شرطاً من شروط الإيمان فلا بد أن يكون مفيدًا لنا، وإلا ما عُدّ الإيمان به ضروريًا. مثلا أُمرنا بالإيمان بالله تعالى، وفائدته أنه من خلال الإيمان به يتعرف الإنسان على مُحسنه، ويتمكن من إنشاء تلك العلاقة معه التي توجب رقيه والتي تُعدّ الغرضَ من خلقه. كما أن هناك فائدة أخرى وهي أن

الإنسان يرى بسبب علمه وإيمانه هذا أنه مسؤول عن أعماله أمام الذات الإلهية.

كذلك أُمرنا بالإيمان بالأنبياء وفائدته أن الإنسان يعرف من خلالهم الطريق المؤدي إلى الله تعالى.

وأُمرنا بالإيمان بالملائكة وفائدته إيقان الإنسان بحضّ الملائكة له على فعل الخير فيسعى للعمل به، وبإنشائه العلاقة معهم يتخذ لنفسه صديقًا معينًا ومساعدًا في سيره على طريق الهدى.

كذلك أُمرنا بالإيمان بكتب الله تعالى ففائدتها تعليم الإنسان رضا الله تعالى وتعريفه الأحكام التي يكفل العمل بها نجاته من الهلاك.

كذلك هناك فائدة للإيمان بالبعث بعد الموت، إذ يدرك أن حياته ليست عبثًا، بل هي جارية مستديمة وبالتالي يسعى لها. وعليه فهناك فائدة لكل الأمور التي جُعل الإيمان بها ضروريًا، ولكن المسلمين لم يفكروا في الفائدة المتوخاة من الإيمان بالتقدير، بل نهضوا حاملين العصي ومهددين بها قائلين: آمنوا بالتقدير! فماذا عسى أن يكون الرد عليه سوى القول: هذا هو قدرنا.

فبدلا من أن يفكر المسلمون في الفائدة المنشودة من الإيمان بهذه المسألة تطرّقوا إلى أمور عابثة.

كان ينبغي عليهم أن يبحثوا عن فوائد الإيمان بها. فلوا انتهجوا هذا المنهج لثبتت لهم تلقائيًا تفاهة التعريف الذي عرّفوا بها مسألة القدر،

ولاتضحت لهم عبثية أقوالهم فيها، في حين أن الإيمان بمسألة القدر لا يمكن أن يكون من العبث واللغو، بل يتعلق بالروحانية بعلاقة وطيدة، ويستفيد بها الإنسان استفادة عظمى، لأنه لا يدخل في الإيمانيات إلا الأمور التي لها علاقة مع روحانية الإنسان، والتي تبعث على الرقي الروحاني.

فإن وجوب الإيمان بالتقدير يعني أن له علاقةً مع الروحانية وتستفيد به الروح استفادة كبيرة. فعند ثبوت هذا الأمر كان ينبغي الاهتمام بالبحث عن تلك الفائدة المتوخاة التي ينالها الإنسان بواسطة الإيمان به، إذ لا يسع الناس الانتفاع بهذه الأمور المفيدة ما لم يعرفوها؟ ولكن الأسف أن الفلاسفة قد أضاعوا أعمارهم في بحوث القدر والجبر ولم ينتبهوا إلى هذا الأمر لطرفة عين، وكانت النتيجة أنهم ظلوا يتناطحون فيما بينهم دون أن ينتفعوا بما فيه من منافع. فلو فكروا فيه وعملوا بحسبه لانتفعوا به أيضا. فمَن أيقنوا -خلافًا لهؤلاء الفلاسفة- بمسألة التقدير أنها ضرورية لرقينا الروحاني، ثم فكّروا فيها وأدركوا الأضرار الناجمة عن عدم الإيمان بها، وعرفوا المنافع الحاصلة من الإيمان بها، فقد استفادوا بهذا العلم استفادة جيدة، وبالتالي أحرزوا رقيًّا ملموسًا لدرجة أنهم وصلوا إلى الله؛ أما غيرهم فبقوا يخوضون في النقاشات العقيمة فيما إذا كانوا هم الذين يقومون بما يصدر منهم من أفعال أم هو فعل الله تعالى.

على أية حال لقد أخطأ كثيرًا كل من خاضوا في هذه المسألة في بحوث تافهة حتى صاروا مصداقًا لحديث النبي ﷺ لـــمّا قال: يُمسخ قوم من أمتي فِي أَهْلِ الْقَدَرِ. (الترمذي، أبواب القدر، باب الرضا بالقضاء).

هل الله تعالى يجبر على كل فعل؟

كان ينبغي أن يعرفوا الفوائد الكامنة في هذه القضية، ولكنهم لم ينتبهوا إليها، بل آمنوا بهذه المسألة بطريقة تضرّروا بها بدلا من الانتفاع بها، وعليه فسيتضرر حتمًا كلّ مَن آمن بهذه القضية على شاكلتهم. فمثلا يقول فريق منهم: لا يقوم المرء بما يقوم به إلا بإكراه من الله تعالى. فلو فرضنا أن الأمر كذلك سألناهم: أليس غريبًا أن الله تعالى من ناحية يجبر على ارتكاب أسوأ الأفعال، ومن ناحية أخرى أورد في القرآن الكريم زجرًا وتوبيخًا على ارتكابها؟ ومن العجيب جدًّا أن يكره الله تعالى الإنسان على الزنا، فإن ارتكبه، قال له: لماذا فعلته؟ وهو من يلقي في قلب أبي جهل أن محمدًا (ﷺ) كاذب، وهو من يأمره لمحاربة الرسول الكريم ﷺ ثم هو نفسه الذي يقول: ما الذي أصابه؟ ولماذا جُنّ جنونه؟

نقول: إنه لظلم عظيم، بل ينم عن قلة العقل التفكيرُ بأن يجبر الله تعالى الإنسان على فعل سوء أولا ثم يوبخه على ارتكابه. لاحظوا الآن كم يمكن أن يتضرر الإنسان إن كان مؤمنًا بالله بمثل هذا الإيمان؟ بل

الحقيقة أنه لا يمكن أن يَسْلم إيمانه لدقيقة واحدة مع اعتقاده المذكور. هذه هي حالة أهل القدر.

خطأ أهل التدبير

أما أهل التدبير، فلو فكروا فيما يقدمونه من تعليم لعرفوا أنهم قد شهروا بذلك سيفًا لقطع العلاقات بين الإنسان وبين الله تعالى، وذلك لأن العلاقات تتقوى وتتطور بسبب الحب، أما تعليمهم فهو يبتر جميع أواصر المحبة بين الله تعالى والإنسان. وبهذه المناسبة تذكرت حادثة تشرح لنا كيف تبعث العلاقاتُ على إنشاء المحبة.

بينما كان المسيح الموعود عليه السلام يقرأ جريدة "أخبار عام" إذ ناداني قائلا: محمود! محمود! محمود! فلما جئته قال: مات فلان من كالكوتا. قلت له مستغربًا: ما يهمني ذلك؟ فقال: هذه نتيجة عدم علاقتك معه. يعج بيته بالعويل والنياح أما أنت فتقول: ما يهمني ذلك؟

فالعلاقة تولد المحبة ولكن تعليم أهل التدبير يخالف ذلك إذ إنهم يقولون بأن الله تعالى قد خلق الأشياء وخلق الإنسان أيضا ثم تركه ليفعل ما يشاء. إذا كان هذا صحيحًا فكيف يمكن أن تنشأ علاقة بين الله تعالى وعبده؟ لا شك أن ما خلق الله تعالى يحتوي على فوائد ومضار أيضا، فمثلا خلق الله النار ولها فوائد كما أن لها أضرارًا أيضا، فلو

كانت تساعد في طبخ الطعام فإنها تحرق أيضًا بيتًا وأثاثًا بمئات الألوف من الروبيات وتذره رمادًا.

فلقد أجبروا الناس على الإيمان بمسألة القدر بشكل يؤدي إلى اتهام الله تعالى الخالق لجميع العقول بأنه يعمل أعمالا تخالف العقل -والعياذ بالله- كما أنه يؤدي إلى انقطاع علاقة حب الإنسان مع الله تعالى، لأنه يخطر مثلا ببال الإنسان أنه إذا كانت النار التي خلقها الله تعالى تفيد فإنها تضرّ أيضا، فأيّ منة لله في خلقها؟ لا يمكن أن تنشأ علاقات الحب مع الله تعالى عند نشوء مثل هذه الوساوس، بل ستكون مشابهة لعلاقة سكان هذه المنطقة مع أهل أمريكا، بل أقل منها، إذ يمكنهم استيراد البضائع من أمريكا أما الله تعالى فلا يرجون منه خيرًا. فإن مثل هذه الأفكار قد أضرّت بالروحانية ضررًا لا مزيد عليه.

الأمور الذوقية عن مسألة القدر

والآن أذكر ما يثبت من القرآن الكريم من حقيقة هذه المسألة.

فأولا أشرحها ثم أذكر منافعها. ولكن يجدر بالذكر هنا أن كبار العلماء أيضا لم يستطيعوا ذكر بعض الجوانب لمسألة القدر و لم يحاولوا التطرق إلى بيانها، وذلك لأن هناك بعض الأمور الدقيقة التي تسمى الذوقية. ولا أقصد من الأمور الذوقية أنها تلك الأمور التي لا دليل عليها ولا حقيقة لها على صعيد الواقع كما يتعارفها العامة، بل أقصد منها

الأمور التي لا يمكن للإنسان أن يعرفها حق المعرفة ما لم يتذوق طعمها. لم يستطع العلماء قبلي ذكر هذه الأمور كما لا يسعني ذكرها أنا أيضا.

أنواع القدر

قبل أن أفصّل في مسألة القدر أريد أن أبيّن أن التقديرَ أنواعٌ، وأذكر أربعة منها الآن، وبما أنها تتعلق بعامة الناس لذلك من السهل للجميع فهمها وإفهامها أيضا.

سأسمي أحدها بالقدر العام الطبيعي، أي ذلك القدر الذي يجري من الله تعالى في التعاملات الدنيوية العامة، فالنار تمتاز بخاصية الإحراق، والماء بصفة الإطفاء، والخشب بالاحتراق، والخيط بحياكة القماش إذا استُخدم بطريقة معينة، والخبز يمتاز بخاصية الإشباع إذا دخل بطنَ أحد، كل هذا قدرٌ جار من الله تعالى ولا دخلَ للإنسان فيه، وإنه القدر العام الذي يتعلق بالأمور الطبيعية، أي إنه يتعلق بالجسم ولا علاقة له بالروح. بعبارة أخرى إن صفة الإحراق في النار، وأن تحمل دوالي العنب عنبًا، وشجرة النخيل تمرًا، وقابلية تطعيم بعض الأشجار مع بعضها، وولادة الطفل في مدة تسعة أشهر أو خلال فترة معينة، كلها قوانين جارية بشكل عام وهذا ما أسميه القدر العام الطبيعي.

والنوع الثاني هو القدر الخاص الطبيعي. كما سبق أن قلت إن هناك قدرًا عامًا وهو عبارة عن قوانين محددة مثل صفة الإحراق في النار،

والشعور بالحرّ تحت الشمس، ونضوج الثمار بحرارة الشمس، شيء يَشفي وآخر يسبب مرضًا، هذا هو القدر العام الطبيعي، ولكن هناك قدر خاص طبيعي أيضا أي تنـــزل في بعض الأحيان أوامر خاصة من الله تعالى أن يُنعم على فلان بثروة مثلا، أو أن يُحرَق شيءٌ ما، أو يُهلَك فلان، أو يولَد عند فلان ولدٌ حتى ولو كانت امرأتُه عاقرًا، فإنها أوامر خاصة ولا تخضع لقانون طبيعي عام؛ بمعنى أنها لا تخضع للقانون الطبيعي العام بل تظهر نتيجتها بهذا الشكل الذي ظهرت به لشخص خاص وفق أوامر الله الخاصة.

والنوع الثالث هو القدر العام الشرعي، فمثلا إذا صلى أحد صلاة بطريقة كانت نتيجتها معينة، وإذا صلاها بطريقة أخرى كانت نتيجتها مختلفة عن الأولى، وإذا صام حدث فيه تغير روحاني خاص.

والنوع الرابع هو القدر الخاص الشرعي، ومعناه أن ينعم الله تعالى على أحد بفضله الذي يكون موهبة خاصة منه، كأنْ يُنـــزل عليه كلامَه تعالى، ويقول الله تعالى عنه: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن: ٢-٣).

هذه هي الأنواع الأربعة للقدر، وسميتها بأسماء مختلفة من أجل ترسيخها في الأذهان وهي:

١) القدر العام الطبيعي

٢) القدر الخاص الطبيعي

٣) القدر العام الشرعي

٤) القدر الخاص الشرعي.

يجدر بالذكر هنا أن القدر العام الطبيعي يظهر من خلال العلاقات المادية، أما جميع أنواع القدر الباقية –سواء كان القدر الخاص الطبيعي أو القدر العام الشرعي أو القدر الخاص الشرعي– فتظهر من خلال العلاقات الروحانية، ويعني ذلك أنه لا علاقة للأسباب الدنيوية في ظهور هذه الأنواع الثلاثة الأخيرة للقدر، بل سبب ظهورها هو العلاقاتُ الروحانية التي يرتبط بها العبد مع الله تعالى، أو التي تكون لله تعالى مع عبده. يظهر مثل هذا القدر إما لرقي المؤمنين أو لذلة الكافرين، أو يظهر للرحمةِ على عامة الناس.

لا يوجد إلى جانب أقسام القدر المذكورة قسمٌ آخر يجبر الإنسان على السرقة أو النهب أو الزنا، ومن يقولون بأن الله تعالى يجبر الناس على فعلها فإنهم كذبة ويتهمون الله تعالى.

ظهور القدر

بعد معرفة أقسام القدر لا بد من معرفة الأسباب المؤدية إلى ظهور القدر الخاص، لأن الناس بسبب عدم معرفتهم له أصبحوا يقولون إن الله تعالى يجبرنا على كل ما نقوم به. هؤلاء لا يدركون أن الله تعالى في غنى عن

إجبار الناس على فعل شيء، بل هناك شروط خاصة لظهور قدر الله الخاص. لقد نشأ هذا الانخداع من العُجب، إذ يَعُدّ هؤلاء أنفسَهم شيئًا بحيث ينجز الله تعالى بعض أفعاله بواسطتهم. ولكن الحقيقة أن الأوامر الخاصة تخص الخواص من الناس سواء كانوا من الصالحين أو من الطالحين.

تفاصيل القدر الخاص

بعد أن ذكرت أنواع القدر باختصار أتناول الآن بعض تفاصيلها. وبما أن القدر الخاص تابع لقواعد القدر العام لذلك لا حاجة لتفصيل القدر العام، وسأكتفي بإيراد تفاصيل القدر الخاص.

القدر الخاص على نوعين أحدهما الأحكام التي تجري من الله تعالى وفق القواعد الثابتة الأصولية. مثلا هناك قاعدة وأصل قرّره الله تعالى أن الأنبياء وجماعاتهم سيغلبون دومًا، لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة: ٢٢).

ولقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٨).

فثبت الآن أن الأنبياء وجماعاتهم ينتصرون على الأعداء، ولا يمكن أن ندرج هذا الأمر في القدر العام الشرعي لأنه أمر خاص يصدر وفق أصل خاص رغم الأمور الطبيعية غير المواتية في كثير من الأحيان.

وثانيهما القدر الخاص الذي يجري في ظروف خاصة ولخواص من الناس، ولا يتبع قاعدة أصولية معينة، ومثاله ذلك الوعد الذي وُعد به

النبي ﷺ بفتح مكة. لا شك أنه كان قد قُدّر للنبي الكريم ﷺ وفق القانون العام أن يغلب الأعداءَ، ولكنه ليس من سنة الله تعالى أن يجعل الأنبياء ملوكًا في البلاد التي وُلدوا فيها، إلا أنه أصدر هذا الأمر الخاص لرسول الله ﷺ بأن يهاجر من مكة أولا، ثم يفتحها ويصبح ملكًا فيها. فهذا الأمر كان خاصًّا بالرسول الكريم ﷺ، وعند صدور هذا الأمر لم يعد بوسع العالم منعه من أن يصبح ملكًا على مكة. يقول بعض الجهلة أن الله تعالى يجبر على السرقة، ولكننا نقول بأنه قد يتمكن الناس من منع حدوث السرقة، أما ما يريد اللهَ تعالى فعلَه فلا يستطيع أحد منعَه. لقد أوحي إلى رسول الله ﷺ في مكة: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ (القصص: ٨٦)، وكان يتضمن نبوءتين؛ إحداهما: أنه ﷺ سيضطر للخروج من مكة، والثانية أنه لا بد أن يرجع إليها. وهذا ما حصل على صعيد الواقع ولم يستطع أحد الحيلولة دونه.

وهكذا ظهر القدر الخاص لموسى عليه السلام أن يموت كلُّ بِكْرٍ من أعدائه. فكان هناك قدر عام أن الأنبياء هم الغالبون، ولكن كيف يغلب هذا النبي وكيف يغلب ذلك؟ فهذا يتعلق بالقدر الخاص.

كذلك وعد الله تعالى مع المسيح الموعود عليه السلام أن قاديان سوف تتطور وتزدهر، وقد كتب عليه السلام بأن عمرانها سيمتد إلى عشرات الأميال، وأنتم تعلمون أن هذا المكان الذي يُلقَى فيه هذا الخطاب اليوم

يبعُد ميلا واحدًا عن المكان المخصص لمثل هذه الخطابات سابقا. فإن انتصار الأنبياء وغلبتهم تتم وفق تقدير عام يجري وفق بعض القواعد الأصولية، ولكن طريق انتصارهم يتعلق بقدر خاص لا يصدر وفق قاعدة معينة بل يرتبط بظروف كل زمن وأوضاعه. مثلا أمر الله تعالى أن يتم توسيع البلدة التي يسكن فيها حضرته عليه السلام، والسبب في صدور هذا الأمر هو أن المدن الكبيرة قد أصبحت موضة العالم اليوم، فقد أظهر الله تعالى لهذا العصر قدره الخاص المتعلق بهذا الأمر.

علاقة القدر بالأسباب

والآن أخبركم كيف يعمل القدر. إذا أراد الله تعالى أن يحترق فلان، فهل يأمر ذلك فيصاب بالنار فورًا في مكانه؟ أم تُخلَق لذلك أسباب؟

اعلموا أن القدر يرتبط بالأسباب من عدة طرق.

١) ظهور القدر الإلهي المصحوب بالأسباب، فالقدر العام الطبيعي يظهر دومًا على هذه الشاكلة، خذوا مثلًا اشتعال النار. لا تشتعل النار إلا بالأسباب التي أودعها الله تعالى خاصية إشعال النار. فمثلا تصيب شرارةُ النار شيئًا قابلا للاحتراق، أو تخرج النار نتيجة احتكاك شيئين ويكون أحدهما أو كلاهما قابلًا للاحتراق، أو أن يكون شيء قابلا للاحتراق مع جسمَين صلبَين محتكّين.

القدر الخاص يظهر بطريقتين:

(أ) أن يكون مصحوبًا بمثل هذه الأسباب

(ب) أن لا يكون مصحوبًا بالأسباب

وإن القدر الخاص المصحوب بالأسباب يظهر بطرق شتى:

الأول: أن تتراءى الأسباب فيتضح أنها أدت إلى حدوث هذا الأمر. وإن جانب القدر يكون خفيًا جدًّا في مثل هذا الأمر. يظهر مثل هذا القدر بدوره بطرق شتى.

الثاني: أن تنشأ أسباب حسنة إزاء أسباب سيئة، فمثلا، كان رجلٌ يسكن في قريةٍ بدأ مختارُها بتعذيبه نتيجة خلافه معه. والآن قرر الله تعالى لسبب ما (ما هو هذا السبب؟ سأتكلم عن مثله لاحقًا) أن لا يتضرر هذا الشخص، وأحدُ طرقِه أن يوقع حُبَّه في قلب نائب الحاكم في المنطقة، فيقوم باللقاءات الوُدّية معه فيمتنع مختار القرية عن معارضته بعد رؤية علاقته مع نائب الحاكم مخافةَ أن يرفع ضده قضيةً في المحكمة.

٢) أن تتحول الأسباب السيئة إلى الحسنة. مثلا يعادي أحدُ المعارضين أحدًا منا ويحاول الإضرار به، فيخلق الله تعالى أسبابًا يتحول بها هذا المعارض إلى صديق، كما حدث مع المسيح الموعود عليه السلام فيما رفعه ضده القس هنري مارتن كلارك من قضية المؤامرة بقتل أحد. وعندما رُفعت هذه القضية كان نائب المفوض في محافظة غورداسبور آنذاك النقيب دوغلاس الذي كان متعصبًا جدًّا، وقد سبق -عند انتقاله إلى

غورداسبور- أن قال لكثير من الناس: ألم تُتخذ إجراءات لوضع حدّ لمدّعي المسيحية والمهدوية في هذه المنطقة؟ لا بد أن يعاقب مثل هذا الشخص لأن ادعاءه يؤدي إلى الإخلال بالأمن العام. وبما أن هذه القضية كانت تقع على جانب كبير من الأهمية لذلك رُفعت في محكمة هذا القاضي المذكور قصدًا، فأراد في البداية -بدافع التعصب الخفي الذي كان يكنّه تجاه حضرته عليه السلام- أن يصدر الأوامر بإحضار حضرته عليه السلام معتقَلاً، ولكن ضباط الشرطة وبعض أعضاء محكمته أشاروا عليه بأنه شخصية كبيرة، وهو زعيم لجماعة محترمة فقد تؤدي مثل هذه المعاملة إلى إذكاء نار الفتنة، لذلك يستحسن أن يتم استدعاؤه أولا بشكل عادي، ثم بعد الاطلاع على مجريات القضية يمكنك أن تصدر ما تشاء من أوامر. فبسبب هذه المشورة أُرسِل شرطيٌ لاستدعاء حضرته عليه السلام فحضر ورافقه حضرته. ثم أحدث الله تعالى في قلب هذا القاضي -الذي كان يقول لماذا لم يُعاقَب المرزا بعدُ- تغييرًا عجيبًا حتى أمر بوضع كرسي له على المنصة، ثم أجلس حضرتَه معه هناك، وصافح حضرتَه عند وصوله إلى المحكمة وعامله بالحب والاحترام.

رب قائل يقول بأن بعض الشطّار يظهرون المحبة بدايةً ليضروا أخيرًا، ولكن لاحظوا أنه عندما بدأت القضية -التي لم تكن قضية عادية، بل كانت قضية اتهام بقتل أحد، وكان مقابل حضرته قس إنكليزي، وكان

الشهود الحاضرون من رجال الدين، وكان المتّهم قد اعترف بجريمته وأدلى بإفادته- قال: إن قلبي لا يشهد بصدق هذه القضية. لاحظوا الآن، من يحكم على القلوب؟ ليس إلا الذي اسمه "الله"، وإلا فلو كان هذا قرار النقيب دوغلاس لكان مبنيًا على الظاهر، ولكن رغم الظروف الظاهرة المعادية لحضرته كان دوغلاس يوعز إلى الشرطة بضرورة التحقيق مع المتهم، فيأتيه رجال الشرطة قائلين بأن المتهم يؤكد على صحة إفادته التي أدلى بها سابقا. ثم يقول لهم النقيب دوغلاس بأن قلبي لا يطمئن لكلامه، ثم يذهب إليه رجال الشرطة ومرة أخرى يعيدُ المتهم قولَه، ولكن القاضي يعود ويقول بأن قلبه لا يطمئن لبيان هذا المتهم. وهنا انتبه رئيس الشرطة فطلب من القاضي إبقاء الشاهد تحت حراسة الشرطة بدلا من إبقائه لدى القساوسة وذلك لنفي احتمال حياكةِ كيدٍ ما. فلما فعلوا ذلك سقط المتهم على قدمَي رئيس الشرطة وذكر الحقيقة وأخبر باسم القس الذي كان يلقنه هذه التصريحات، وكان يريد منه حفظ أسماء بعض الأحمديين الذين كان يريد أن يورطهم في القضية، وأفاد قائلا: فلما كنت لا أحفظ هذه الأسماء كان هذا القس يكتبها على راحة يدي بالقلم حتى أستعيد ذاكرتي عند قراءتي لها من راحة يدي أثناء المحكمة. هكذا غيّر الله تعالى قلب المجرم فباح بالحق، ومن ناحية ثانية غيّر الله تعالى قلب نائب المفوّض فتحول من المخالف إلى الموافق فقرر

براءة حضرته في القضية وقال له: يحقّ لك أن ترفع قضية ضد هؤلاء الذين كادوا ضدك.

لقد حصل هذا بقدر خاص، ولكن كيف تم ظهوره؟ ظهر هذا القدر من خلال تحويل الله تعالى الأسباب السيئة إلى حسنة، بحيث قال الذي كان يريد معاقبةَ حضرته: لا يطمئن قلبي أن يكون هذا الاتهام قد ألصق بالسيد المرزا بنية صادقة.

٣) والطريق الثالث لظهور القدر هو أن الله تعالى يمنع تأثير الأسباب السيئة بخلقه أسبابًا أخرى. مثلا يدخل أحد إلى بيت غيره بقصد قتله ويهاجمه بالسيف فتخطئ ضربة السيف ولا تصيبه، أو يحول دونها شيء آخر فيبقى محفوظًا من أثرها. فظلت الأسباب السيئة في مكانها في هذه الواقعة دون أن تتحول إلى حسنة غير أن المرء حُفظ من أثرها.

٤) والطريق الرابع لظهور القدر هو أن يوفق الإنسان لسعي حسنٍ مقابل الأسباب السيئة. فمثلًا أن يهاجمه العدو وتكون إحدى الذرائع لوقايته من تلك الهجمة إقامة الله تعالى شخصًا قويًّا آخر لحمايته؛ والطريق الثاني أن يهبه الله تعالى قوة لمجابهته، وهكذا بتوفيقه للسعي الحسن يحفظه من أثر الأسباب السيئة التي كانت تجتمع له.

هذه هي الطرق الأربعة التي يظهر بها القدر الخاص بحيث يُلغى القدر العام ببعض الأسباب التي تُلاحَظ وتُرى.

الأسباب الخفية للقدر

والصورة الثانية لظهور القدر هي التي تُخلق لها الأسباب، إلا أنها تكون خفية جدًّا بحيث لا تُدرك ما لم يخبر الله تعالى عنها، أو يتعمق الإنسان كثيرًا في البحث عنها، لذلك يُظنّ عمومًا أن مثل هذا القدر قد ظهر بدون أسباب، في حين أنه لا يتم ظهوره في الحقيقة إلا بالأسباب. فمثلا لو كان لأحد عدوّ يحاول الإضرار به بكل الطرق، وفي يوم من الأيام يجد بالمصادفة فرصة لقتله إنْ أراد ذلك، ولكنه يترك عدوّه رغم رغبته القوية في القضاء عليه. ما يظهر عيانًا من تصرف هذا الشخص هو أنه ليس له أي سبب ملموس، ولكن من الممكن أن يكون وراءه سبب، مثلا ربما غلبه الخوف من أن يراه أحد، أو لو شك فيه أقارب الضحية لانتقموا منه، أو أي سبب آخر خلقه الله تعالى آنئذ بشكل خاص. وورد في القرآن الكريم مثال لذلك. قال لشعيب معارضوه: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾ (هود: ٩٢)، ويتضح من هاهنا أنهم رغم رغبتهم الشديدة لم يرجموا شعيبًا عليه السلام لأنهم كانوا يخافون من غضب أقاربه وأخذهم بثأره. ولكن ربما كان الناس يتعجبون من تصرفهم حيث أنهم لا يحركون ساكنًا بعد إبدائهم حماسًا.

وقد اتضح بعد إظهارهم الحقيقة أن هذا القدر كان يظهر من خلال سبب خاص. ولا داعي لإثارة هذه الشبهة هنا أنه كيف يمكن تسمية

هذا الشيء بالقدر الخاص لأنه من الطبيعي أن يخاف الناس ممن له أقارب كُثُر، وذلك لأنه لم يكن تابعًا لقانون القدر العام كلّ ما حدث، بل كان تابعًا للقدر الخاص؛ لأن شعيبًا أعلن أنه نبي، وأعلن جهارًا أيضا بأنه سينجح في مهمته، ولن يقدر عليه عدوه. فلا يمكن أن يُعدَّ عدم تمكّن عدوّه منه من قانون القدر العام بل كان قدرًا خاصًّا، وكانت يد الله تعالى تمنعه من أيدي الأعداء، ويتضح بجلاء أكثر أنه كان قدرًا خاصًّا عندما نرى أن أقارب شعيب عليه السلام كانوا مع الأعداء ولم يكونوا تابعين له عليه السلام، وأن الناس يقتلون حتى الملوك الكبار ولا يخافون أحدًا.

ونجد مثال هذا القدر في غزوة الأحزاب في عهد النبي ﷺ، إذ استعد عدوّه بكل ما كان يملك من قوة لشنّ هجمة قوية، ولكنه لم يستطع فعل شيء رغم محاولاته المستميتة. لقد جاء العدو بجيش قوامه عشرة آلاف وضيقوا على المسلمين لدرجة أنْ لم يعد لهم مكان ليخرجوا إليه من أجل قضاء حاجتهم. ذكر القرآن الكريم حالتهم هذه بالكلمات التالية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا * وَإِذْ

يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (الأحزاب: ١٠-١٣).

يثبت من هذه الآيات أن الله تعالى قد أمدّ المسلمين في غزوة الأحزاب بأمور لم يروها. وقد أمدهم بها في وقت تشجَّعَ فيه المنافقون -رغم جبنهم الطبعي- عند رؤيتهم الحالة المزرية للمسلمين، وراحوا يقولون إن إله المسلمين ورسولهم ظلا يعطيان وعودًا كاذبة.

لقد أمد الله تعالى المسلمين بذرائع خفية حيّرت المسلمين أنفسهم أيضا، حتى ورد في الروايات أنه في أيام حصار العدو الشديد نادى النبي ﷺ في منتصف إحدى الليالي: مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ؟ فقال صحابي: لبيك يا رسول الله! فقال ﷺ: لا، أريد أحدًا سواك؟ فلم يسمع ﷺ صوتًا من أحد، فسكت برهة ثم أعاد قوله: مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ؟ قال ذلك الصحابي: لبيك يا رسول الله. فقال ﷺ: لا، أريد غيرك. ثم نادى: مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ فينظر؟ فلم يجبه غير هذا الصحابي نفسه! فقال له النبي ﷺ: اخرجْ وانظرْ، فإن الله تعالى قد أخبرني أن العدو قد هرب. (السيرة النبوية لابن هشام، غزوة الخندق)

فلما خرج ذلك الصحابي وجد الأرض خاليةً من خيام الأعداء لأنهم كانوا قد هربوا.

وقال بعض الصحابة: كنا مستيقظين لما نادى النبي ﷺ ولكننا لم نستطع أن نجيبه من شدة البرد. (المرجع السابق)

لاحظوا الآن رغم أنه لا تُرى أية أسباب لهروب العدو -وهو ما كان يحيّر الصحابة أيضا- ولكن كانت هناك أسباب لهروبهم كما ثبت من إسلام بعض الناس لاحقًا، إلا أنها كانت خفية جدًّا، وهي: لما نام هؤلاء الأعداء ليلا انطفأت نار رئيس إحدى القبائل، وكان العرب إذا انطفأت نار أحدهم يتشاءمون ويظنون أن مصيبة ما ستحلّ به قريبًا، فتشاورت قبيلته حول الوضع وماذا ينبغي فعله، فقرروا أن يرفعوا خيمهم من هذا المكان وينصبوها خلف الجميع على بعد يسير منهم. فلما أرادوا التنحي قليلا ورآهم أهل قبيلة أخرى على هذه الحالة رجعوا أيضا قليلا، ولما رآهم أهل قبيلة ثالثة حذوا حذوَهما، وهكذا كل قبيلة ظنت أن عدوها شنّ هجمة في عتمة الليل مما دفع بعضهم إلى فرار مفاجئ، حتى أن أبا سفيان ركب ناقته المربوطة في هلعٍ عظيم وأخذ يضربها لإسراعها في الجري. فكانت النتيجة أنهم جميعًا هربوا، ولما اجتمعوا بعيدًا وتساءلوا عن سبب هروبهم علموا أنه لم يكن هناك ما يدعوا لهذا الفرار.

فكانت هناك أسباب لفرار الكفار يوم الأحزاب ولكنها لم تكن بادية بل كانت خفية. وهذا ما أشير إليه في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ أي كانت هناك جنود مخفية.

وكان السبب في نداء الرسول ﷺ: مَنْ رَجُلٌ يَقُومُ؟ أنه كان يريد أن يخبر المسلمين أن الله تعالى هو من وهبكم النجاح والفتح وإلا فتعرفون

حالتكم بحيث جمّدت ألسنتكم من شدة البرد لدرجةٍ أن محمدًا (ﷺ) كان يدعوكم وما كنتم تستطيعون الرد عليه. وفي هذه الحالة نفسها أظهر الله تعالى آيات قدرته بحيث اضطر أعدى أعدائكم للهروب.

التقدير الخاص بدون أسباب

إضافة إلى هذا القدر الخاص -الذي يخلق الله تعالى أسبابًا له- هناك نوع آخر من قدر الله تعالى، وهو يظهر بلا واسطة الأسباب، وهو على نوعين:

١. أولهما: القدر الذي يظهر أصلا دون الاعتماد على الأسباب، ولكن الله تعالى بفضل حكمته الخاصة يضم إليه الأسباب أيضا.

مثلا، تلقى المسيح الموعود عليه السلام وحيًا أن الأحمديين لن يتعرضوا للطاعون عمومًا، ولكنه إضافة إلى ذلك أوصى بلبس الجوارب وعدم الخروج من البيت ليلا، ونصحهم باستخدام الكينين، وكانت كلها أسباب، ولكن الحقيقة أن هذا القدر لم يكن منوطًا بالأسباب، وذلك لأن الناس الآخرين أيضا كانوا يلبسون الجوارب والقفازات بكثرة، كما كان عدد كبير منهم يستخدمون الأدوية الوقائية أيضا، ولم يكن الأحمديون يملكون الأسباب أكثر من الآخرين حتى يُعصَموا من الطاعون. الحقيقة أن الجراثيم كانت مأمورة من الله تعالى ألا تدخل أجسام الأحمديين، ولكن الأحمديين أيضا أُمروا باستخدام الأسباب؛ والسبب في ذلك أن العدو

أيضا كان سيطلع على هذا الأمر، وظهور هذا القدر من دون اتخاذ الأسباب كان سيؤدي إلى تلاشي الفرق بين الإيمان وعدمه. فلو بقي الأحمديون في مأمن من إصابة الطاعون دون اتخاذهم هذه الأسباب الظاهرية أو لو لم تحدث بعض الصور الاستثنائية في هذا الأمر لدخل الجميع في الأحمدية، ولم يكن إيمانهم هذا إيمانًا بالغيب.

٢. القسم الثاني لهذا القدر هو الذي لا توجد له أسباب ولا تضاف إلى ظهوره. ومثل هذا القدر لا يظهر إلا أمام النبيين أو المؤمنين، لأنه لو ظهر أمام غير المؤمنين لحُرموا من ثواب الإيمان. ولكن المؤمنين الذين سبق أن آمنوا بالغيب فإنهم من خلال مشاهدتهم لمثل هذا القدر يوهبون الإيمان بالشهادة، وبواسطة هذا القدر يحققون رقيًّا خاصًّا في الإيمان.

ومثال هذا القدر في حياة المسيح الموعود عليه السلام هو حادث سقوط قطرات الحبر الأحمر على قميصه. لقد رأى عليه السلام في الرؤيا أنه مَثُل في حضرة الله تعالى وقدّم له بعض الأوراق، فهزّ الله تعالى القلم قبل التوقيع عليها، فسقطت قطرات الحبر على ثيابه. كان المولوي عبد الله السنوري يدلك رجل حضرته في ذلك الوقت، فلاحظ أن هناك قطرة حمراء على كعب حضرته عليه السلام، فلما لامسها وجدها طرية مما أثار حيرته. لقد سألتُه: ألم يخطر ببالك أن هذه القطرات نتيجة لبعض الأسباب الظاهرية وليست خارقة للعادة؟ فقال: لقد خطر ببالي ذلك ولأجل ذلك أجلت

النظر في الغرفة هنا وهناك ونظرت إلى السقف أيضا وظننت ربما قُطع ذنَب إحدى السحليات فسقطت منه قطرات الدم إلا أن السقف كان يخلو من كل هذه الاحتمالات التي يمكن أن تنسب إليها القطرات الحمراء. لقد سألته عن ذلك بعدما استيقظ عليه السلام فأراد أولا أن يصرفني لكنه أخبرني فيما بعد بالحقيقة كلها.

هكذا أظهر الله تعالى القدر الخاص دون أي سبب ظاهري، ولكنه أظهره أمام أحد الأنبياء وأحد متبعيه وهو المولوي عبد الله، لأنه كان قد آمن بالغيب، وأراد الله تعالى أن يهبه الإيمان بالشهادة الآن.

باختصار، يظهر الله تعالى قدره بلا أسباب أيضا لإنعاش إيمان المؤمنين، وذلك ليجدوا برهانًا على قدرة الله تعالى، ولكن لا يحق لكافر أن يريه الله تعالى مثل هذه المشاهد.

ونجد أمثلة على هذا النوع من القدر الإلهي في حياة النبي ﷺ الذي هو سيد الأنبياء والمرسلين. فلما هاجر إلى المدينة واقتصّ كفار مكة أثرَه وتتبّعوه إلى أن وصلوا إلى "غار ثور" حيث كان ﷺ متخفيا مع أبي بكر رضي الله عنه. قال قصّاص الأثر الذي استعان به الكفار: إنهما لم يتجاوزا هذا المكان. مع ذلك لم يخطر ببال أحدهم أن ينحني ليلقي نظرة داخل الغار، مع أنه كان ينبغي أن يخطر تلقائيا ببال الذين تتبعوا أثر النبي ﷺ من ثلاثة أميال وصعدوا الجبل بحثًا عنه، أن ينظروا داخل الغار ما داموا قد وصلوا

إلى مدخله فلعله ﷺ يكون داخل الغار، ولكن لم ينظر أحدهم إلى داخله. يقول أبو بكر رضي الله عنه: كان مدخل الغار واسعًا لدرجة أنهم لو انحنوا قليلا لرأونا في داخله، وكان هذا سلطاناً من الله تعالى على قلوبهم، ولم تكن هناك أسباب ظاهرة لظهور هذا القدر.

قلّما يظهر هذا النوع من القدر الإلهي، ولا يُطلع عليه إلا المؤمنون وذلك لكي يزدادوا إيمانًا. فمع أن الكفار أيضا موجودون عند غار ثور ولكنهم ما عرفوا أن محمدًا ﷺ أيضا موجودٌ هناك، ولم يستطيعوا أن يروه، ولم يكن يعلم ذلك إلا النبي ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه.

وتكثير النبي ﷺ الماء أيضا مثال لهذا النوع من القدر الإلهي. لقد ورد ذكر هذه المعجزة في الأحاديث كثيرًا فلا يسع أي مسلم إنكارها، اللهم إلا إذا أنكرها بعض الناس من عصرنا هذا، فذلك شأنهم. لم تظهر هذه الآية إلا أمام أنظار المسلمين، ولو ظهرت أمام الكفار لحُرموا من الإيمان بالغيب، أو استحقوا العذاب العاجل إثر رؤيتهم لهذه الآية جراء وصفهم للنبي ﷺ بأنه ساحر، الأمر الذي كان منافيًا لصفة الله الرحيمية.

علاقة القدر بأعمال البشر

لقد برهنت إلى الآن على أنه ليس المعنى الحقيقي للقدر الإلهي هو الذي يفهمه العامة، أو الذي اصطلح عليه بعض الفلاسفة المسلمين، أي لا يحدث إلا ما يفعله المرء، أو أن الله تعالى يفعل كل شيء ولا دخل

للمرء فيه؛ وذكرتُ أن هناك طريقًا أوسط أيضا وهو صحيح ويتطابق مع التعليم الإسلامي وهو: علاقة القدر بأعمال الإنسان، وأسلط عليه الضوء الآن بشكل مفصل.

اعلموا، أن للقدر أنواعًا عديدة كما شرحت سابقًا، ومنها:

القدر العام الطبيعي والقدر العام الشرعي، والقدر الخاص الطبيعي والقدر الخاص الشرعي.

والنوع الأول منها يتعلق بالناس أجمع. لقد وضع الله تعالى قوانين تكفل إدارة شؤون العالم كلها، وهذا يعني أنه خلق في كل شيء خواصَّ تؤدي مهامَها ضمن دائرة عملها. مثلا أودع الله تعالى خاصية الإحراق في النار، فإذا أُشعلت النار في شيءٍ قابل للاحتراق فستحرقه، وسيكون احتراقه وفق قدر الله تعالى. وعليه فقد خلق الله تعالى خواص الأشياء، ولكنه لا يضطر الناسَ لاستعمالها، فمثلا إنْ أحرق أحد بيت غيرِه فسيحترق ولكن الله تعالى لم يقرر أن يحرق فلانٌ بيت فلان، وكذلك إذا سرق السارق واستحوذ على مال غيرِه، فبحسب قدر الله تعالى يُستحوذ على ذلك المال، ولكن الله تعالى لم يقرر مطلقًا أن يغصِب زيدٌ أموال بكر عن طريق السرقة. إنما كان زيدٌ يتمتع بقوة وإرادة سواء استخدمها ليسرق أموال بكر أو امتنع عن ذلك.

وإليكم مثال آخر، ينـــزل المطر وفق قانون عام، ولا يوجد هناك أمر خاص من الله تعالى أن ينـــزل في مكان خاص وفي وقت معين، إذن فإن نزول المطر مرتبط بقدر، إلا أنه ليس بقدر خاص، بل جعله الله تعالى وفق قاعدة عامة، ينـــزل المطر بحسبها أيًّا كانت الظروف. ولكن كما أخبرتكم أنه إضافة إلى القدر العام هناك أنواع أخرى للقدر، تنـــزل فيها أوامر الله تعالى الخاصة، وإذا ظهرت تلك الأنواع الخاصة حُوّل القدر العام ليكون تابعًا لها، أو بعبارة أخرى تُخرق قواعد القدر العام، كما حصل عندما أُلقي إبراهيم عليه السلام في النار. ولكنه نوع من القدر الذي لا يظهر للجميع، ولا في كل يوم، بل هو من الأنواع التي لا تظهر إلا لعباد الله الخواص أو لنصرتهم أو لإهلاك أعدائهم -وذلك لأن الخواص يُعامَلون بالمعاملة الخاصة- أو تكون مدعاة لظهور مثل هذا القدر حالةٌ تستدعي الرحمة لشخص ما، ولا يتعلق ظهور هذا القدر بكونه من خواص الصالحين بل تبعث حالته الخاصة على الإشفاق عليه، وتفور رحمانية الله في مثلها فتُهيِّج صفة الله القادر فتدرأ المصيبة عن هذا المسكين وتعاقب مَن يظلمه. إن مثل هذا القدر ينـــزل أحيانًا على بعض أعضاء الإنسان بحيث يضطر صاحبه لعمل ما، مثلا يؤمر اللسان بإطلاق جملة معينة، فيضطر صاحبه إلى التكلم بتلك الجملة نفسها، ولا يستطيع الامتناع عن ذلك؛ أو تُؤمر

اليد أو الجسم كله بمثل هذا الأمر، فيفقد الإنسان التصرف على يده أو جسمه بل يكون تحت تصرف أمر الله تعالى.

ورد عن عمر ﷺ أنه كان يخطب أثناء خلافته على المنبر إذ جرت على لسانه دون قصد منه الكلمات التالية: يا ساريةُ: الجبلَ، يا ساريةُ: الجبلَ! أي يا سارية اصعد الجبل. لم تكن لهذه الكلمات علاقة مع محتوى الخطبة، فأخذ الناس يسألونه: لماذا قلت هذا الكلام. فقال: بينما أنا ألقي الخطبة، أُرِيتُ القائد المسلم ساريةَ وأصحابَه، ورأيتُ أن العدو على وشك أن يهاجمهم من الخلف ويدمرهم، ورأيت قربهم جبلا يستطيعون إنقاذ أنفسهم بالاحتراز إليه. لذلك صحتُ قائلا: يا ساريةَ اصعد الجبلَ. وبعد بضعة أيام وصلت إلى عمر ﷺ رسالة من سارية قال فيها: بينما كنا في وضع حرج في الحرب إذ سمعنا صوتًا يشبه صوتك، وهو ينبّهنا إلى الخطر المحدق بنا فصعدنا الجبل ونجونا. (تاريخ الخميس: مجلد ٢: كرامة في نداء عمر لسارية وهو على المنبر صفحة ٢٤٣)

يتضح من هذه القصة أن لسان عمر ﷺ قد خرج من سيطرته في ذلك الوقت وصار تحت تصرف الله القادر المطلق الذي لا تحول دونه المسافات.

وعليه فيجري مثل هذا القدر أحيانًا على بعض أعضاء الإنسان، وكما يظن البعض أن الله تعالى يُكره الإنسان على أعماله، فهكذا بالضبط عند ظهور هذا القدر يضطر الله تعالى الإنسان لإنجاز عملٍ ما لا

دخل له فيه، ولا يكون الإنسان في هذه الحالة إلا آلة بيده تعالى، أو يكون كميّت لا يقدر على الحراك بيدِ الحيّ الذي يحركه كيفما يشاء.

باختصار، حدثت واقعة عمر المذكورة تحت تأثير مثل هذا القدر بحيث لم يكن له دخل فيه، وإلا فأنى له أن يوصل صوته إلى هذه المسافة الشاسعة.

ولما كانت ذات النبي الكريم ﷺ جامعة لجميع أنواع المعجزات، لذلك نرى في حياته أيضا أمثلة رائعة لظهور مثل هذا القدر. كان ﷺ راجعًا في إحدى المرات من غزوة واستراح مع أصحابه عند الظهيرة في مكان كثير الشجر. ظن الصحابة أن لا خطر هناك من العدو فانتشروا هنا وهناك واستراحوا، كما استلقى النبي ﷺ أيضا في مكان ما وحده ونام، فلما انتبه فجأة رأى أمامه أعرابيًا يحمل بيده سيفه ﷺ، قال له هذا الشخص: من يمنعك مني؟ فأجابه الرسول ﷺ بكل هدوء: الله. فما أن سمع العدو هذا الجواب حتى أخذته الرعدة وسقط السيف من يده. (انظر مسلم، كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى، وعصمة الله تعالى له من الناس)

فلو حاول العالم كله في ذلك الوقت ألا يسقط السيف من يده لما استطاع ذلك؛ لأن وصول أحدٍ إلى هناك كان يحتاج إلى وقت كثير، فلم يكن بوسع أحد أن يفعل شيئًا إلا الله. ففي مثل هذه الأوقات الخاصة يجري الله قدره الخاص لعباده الخواص. لقد ظهر قدر الله تعالى

لأعرابي يريد قتلَ النبي ﷺ في صورة عدم تحرّك يده، فلم تتحرّك. ظهر هذا القدر في وقت خاص وعلى عضوٍ شخصٍ خاصٍ. ولكن -نظرًا إلى وجود مثل هذا القدر- هل يسع أحدًا القولُ بأن الإنسان مسيِّر ومكرَه؟ كلا، ليس الإنسان بمسيّر رغم هذه الأقدار بل إنه مؤاخَذ على أعماله، وذلك لأن مثل هذه الأقدار تظهر في حالات خاصة ولا تظهر دومًا، وإضافة إلى ذلك لا يظهر قدرٌ يعدّ الإنسان بسببه مكرَهًا فيخرج من دائرة العقاب والثواب.

ونجد مثالا آخر من حياة النبي ﷺ. لما اجتمع العرب وشنّوا هجومًا للقضاء على المسلمين، سميت هذه الغزوة بالأحزاب، كان اليهود قد عقدوا معاهدة مع النبي ﷺ قبل هذه الغزوة أنه إذا هاجم العدو المدينةَ ردّ عليه المسلمين واليهود معًا، فبحسب هذه المعاهدة كان من واجبهم مساعدةُ المسلمين في تلك الغزوة، ولكنهم على عكس ذلك دبّروا مكيدة واتفقوا مع العدو ليهاجم المسلمين من خارج المدينة، أما من الداخل فإنهم سيقتلون نساء المسلمين وولداهم. خرج النبي ﷺ لمواجهة الكفار إلا أنه لم يحصل القتال في هذه الغزوة. وبعدها عاد ﷺ وسأل يهودَ المدينة ماذا يجب أن يكون عقاب خيانتهم؟ لاحظوا أنه لو عاقبهم إنسان رحيم وكريم مثل محمد ﷺ لعاقبهم بمثل ما عاقب أهل مكة فيما بعد حيث قال لهم: لا تثريب عليكم اليوم، أي كان سيعفو عنهم حتمًا،

ولكنهم قالوا لن نرضى بحكمك. ويبدو أن الله تعالى هو من أجرى على ألسنتهم هذا القول، وإلا فإنهم يعرفون منذ سنين طويلة أن النبي ﷺ يعامل أعداءه بالرفق واللين. فلما سُئلوا: على حكمِ مَن تنـــزلون؟ قالوا: على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه. ولما سُئل سعد رضي الله عنه عن عقوبتهم قال: فَإِنِّي أَحْكُمُ فِيهِمْ أَنْ تُقْتَلَ الْمُقَاتِلَةُ. (انظر: البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب). وتم تنفيذ الحكم على هذا النحو.

والسؤال هنا: لماذا أُجري هذا القدر على ألسنة اليهود؟ ذلك لأنه كان يستحيل أن يُجرَى على لسان محمد ﷺ نظرًا إلى رحمته وكرمه ومكانته، فلو حدث ذلك لكان معناه أن قلبه ﷺ قد قسا، ولكن كان بالإمكان إجراؤه على لسان الكفار لأن قلوبهم قد قستْ سابقا. فقد أجرى الله تعالى على لسانهم هذا القدر بحيث قالوا: لا ننـــزل على حكمك بل ننـــزل على حكم فلان.

يجدر بالذكر هنا أن هذين النوعين من القدر -اللذين يجريان على الأعمال أو الألسنة- لا يتعلقان بالأعمال الشرعية، لأن الإنسان سيُسأل عن الأعمال الشرعية يوم القيامة، لأجل ذلك لم يكره الله تعالى عُمرَ رضي الله عنه على الصلوات، بل الذي أُجبِرَ عليه هو إجراء قول: "يا سارية الجبل" على لسانه. كذلك لم يفعل الله تعالى ذلك بخصوص اليهود، فلم يمنعهم من الصلاة قسرًا أو من الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، وإنما نزل هذا

القدر بخصوص جزاء عملهم في قضية سياسية. فإن مثل هذا القدر لا يجري على الأعمال الشرعية بل على الأعمال التي لا يستحق الإنسان العقاب الشرعي عليها، وذلك لأنه لو جرى على الأعمال الشرعية؛ كأن يُكرَه أحدٌ على السرقة، أو على الصلاة، فلا وجه للعقاب والجزاء بل يتحول العقاب في هذه الحالة إلى ظلم وإجحاف، وهو ما يتنـــزه الله تعالى عنه.

هل يجوز اتخاذ الأسباب وقت نزول القدر؟

هل بإمكان العبد اتخاذ الأسباب عند نزول القدر أم لا؟ وإن استطاع فهل يُسمَح له باستخدامها أم لا؟ أخبركم الآن عن هذا.

اعلموا أن الإنسان لا يقدر على اتخاذ الأسباب بخصوص القدر الذي يسري على جوارح الإنسان. وعليه فلما صدر أمرٌ لِلِسان عمر ﵁ بإطلاق كلمات معينة، ما كان قادرًا على منع لسانه من إطلاقها مهما استخدم من أسباب الدنيا.

أو لما سرى هذا القدر على يدِ الكافر ليُفَتَّ في عضده وتخور قواه ويسقط منه السيف ولا يقدر على قتل محمد ﷺ، ما عاد قادرًا على الحيلولة دون تحقق هذا الأمر، كذلك إذا سرى مثل هذا القدر على القلب فلن يقدر على أن يحيد إلى خلافه. ولكن الأقدار التي لا تسري على قلب الإنسان ولا على جوارحه بل تجري على غيرها، أو التي

تسري على أجزاء جسمه التي تعمل عملها الطبيعي دون الرضوخ لإرادته، يقدر فيها الإنسان على استخدام الأسباب. وفي هذه الحالة أيضا يكون الإنسان أمام حالتين اثنتين؛ أولاهما: يعلم فيها أن هذا القدر نزل من الله تعالى، وثانيهما: لا يعلم أن هناك قدرًا من الأقدار قد نزل من الله. ففي هذه الحالة الأخيرة لو استخدم الأسباب فلا جناح عليه. أما عند علمه بنـــزول القدر الإلهي فيكون أمام صورتين أخريين:

إما يأمره الله تعالى باستخدام الأسباب بشكل جزئي أو كلّي، أي لا شك أنه قدر من الله ولكنه يكون مشروطًا بتلك الأسباب، مثلا كان قد قُدّر للنبي الكريم ﷺ الفتح والغلبة، ولكنه كان مشروطا بالحرب.

أو يمنعه الله تعالى من استخدام الأسباب. وفي هذه الحالة يفرض على الإنسان ألا يتخذ الأسباب الجزئية أو الكلية، لأنه لو فعل ذلك لتضرر ونال سخط الله تعالى. والغرض من مثل هذا القدر إخبار الله تعالى للعبد أنه تعالى يقدر على تنفيذ مشيئته دون أي سبب. وللتدليل على ذلك أقدم لكم واقعة من حياة المسيح الموعود عليه السلام. كان حضرته يسهر الليل كله في تمريض أخي مبارك أحمد، وكنت في تلك الأيام أنام عند منتصف الليل تقريبًا، وأستيقظ مبكّرًا عند الصباح. ولكنني كنت

أرى حضرته عليه السلام ساهرًا عند ذهابي للنوم، ثم عندما أستيقظ صباحًا أجده يقظًا أيضا. وبسبب تحمله هذا التعب والإرهاق أصيب بالسعال. كنت أتولى مهمة إعطائه الدواء، وأمنع حضرته عليه السلام أحيانًا من تناول الأشياء الضارة وفق مشورة الأطباء. جاء أحد الإخوة بالموز هديةً له عليه السلام في أحد الأيام، ولما أراد عليه السلام أكل موزةٍ منها قلت له: إنك مصاب بالسعال فلا تأكل الموز، فتبسم لي ووضع الموزةَ جانبًا. ولما كنت أعمل بحسب تعليمات الأطباء وأمرّض حضرته لذلك كان عليه السلام يقبل مني كل ما كنت أقول له. وفي تلك الأيام نفسها جاء الدكتور خليفة رشيد الدين بالتفاح الفرنسي هديةً لحضرته عليه السلام، وكان حامضًا لدرجة أنّ آكلَه لابد أن يُصاب بالسعال إن لم يكن مصابًا به من قبل، ولكن حضرته عليه السلام أخذ تفاحةً واحدة وقشرها وأخذ يأكلها. منعتُه من ذلك ولكنه ظل يأكلها، وبقيت أتململ نظرًا إلى تناوله هذه الفاكهة الحامضة بينما يعاني سلفًا سعالًا شديدًا. لم يبالِ حضرته عليه السلام بشيء واستمرّ يأكل شرائح التفاحة مبتسمًا. فلما أكل التفاحة كلها قال: أنت لا تعلم بأنني تلقيت وحيًا من الله تعالى يقول: زال السعال ولا حاجة للحمية الآن، لذلك فإنني تأدبا مع كلام الله تعالى أكلتُ هذه التفاحة رغم حموضتها. وبالفعل شُفي حضرته من السعال بعد ذلك و لم يشكُ من مضاعفاته.

لماذا يؤمر العبد باتخاذ الأسباب في بعض الحالات؟

والسؤال الآن هو: لماذا يؤمر العبد في بعض الحالات باستخدام الأسباب؟ ولماذا لا تتم الأمور دون استخدام الأسباب ما دامت مقدّرة من الله تعالى؟

أولا: اعلموا أنه لو تمت الأمور دومًا دون استخدام الأسباب لبطل الإيمان بالغيب الذي لا بد منه للحصول على الإنعام والثواب. إضافة إلى ذلك بما أن عمل الإنسان أيضا يجذب رحم الله تعالى لذلك إلى جانب قدَره يأمر ﷻ باستخدام الأسباب لجذب رحمته . لا يمكن للأسباب أن تحول دون قدر الله تعالى ولا يحدث ذلك مطلقًا، ولكن استخدامها يدل على ضعف العبد وعوزه مما يجذب رحمة الله إليه.

ثانيا: يؤمر العبد باتخاذ الأسباب لكي يظهر عليه ضعف سعيه. فلو تمت الأمور دون الأخذ بالأسباب لما عرف الإنسان كيف ينجزها لو اعتمد على سعيه. ولكنه عندما يبذل سعيه إلى جانب قدر الله تعالى يدرك أن سعيه ضعيف جدًّا، كما يدرك مقابل ذلك ما ينجزه فضلُ الله تعالى. فإن سعي الإنسان يقوّي إيمانه، ويدرك أنه لو كان إنجاز هذا العمل متوقفًا على سعيه لوصل إلى حدّ بدائي معين، وبالتالي لكانت قد منيت جهوده بالفشل الذريع. وبدون بذل السعي كان القدر بالنسبة له مصادفة محضة، وكان ذلك سيؤدي به إلى الخلود والكسل أيضا.

وأضرب مثالا على استخدام الأسباب أيضا. كان تحقيق القدر الإلهي للنبي ﷺ يكمن في نجاح مهمته وهزيمة عدوّه، فلو حصل أن مات أعداؤه في بيوتهم بأمراض أو أسباب أخرى لقال الناس أنها صدفة، لأن الناس يموتون في مثل هذه الحوادث، ولكن الله تعالى أظهر هذا القدر من خلال الأسباب، وكان برهانًا على قدرة الله الخاصة.

وحادثة من غزوة بدر تلقي ضوءًا كافيًا على هذا الأمر. يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وقر بقلبي أن أواجه العدو اليوم بشجاعة عديمة النظير. (لأنها كانت الغزوة الأولى التي يلتقي فيها المسلمون بالكفار في حرب طاحنة، حيث كان أبو جهل العدو اللدود للمسلمين مقابل الله ورسوله، وفي هذا الوقت خصوصًا استذكر المسلمون جميع مظالم الكفار التي مورست عليهم).

ولكن الحقيقة أن الجندي الجيد لا يتمكن من القتال جيدا إلا إذا كان الجانب الأيمن والأيسر له قويَين، فلما نظرتُ إلى يميني ويساري فإذا بصبيَّين أنصاريَين يبلغان الرابعة عشرة من عمرهما، فتيَقَّنْتُ أني لن أستطيع اليوم القتال كما أريد. وبينما أنا في ذلك حتى غمزني الذي على يميني وأسرّ إليّ حتى لا يسمع أخوه فقال: يا عمّ، أَرِني أبا جهل الذي آذى رسول الله ﷺ أذًى شديدًا، فإني أريد قتلَه. لقد أذهلني كلامُه لأنه لم يخطر ببالي هذا الأمر. وكنت على وشك الرد عليه، حتى غمزني الذي كان

على يساري فقال: يا عمّ، مَن هو أبو جهل الذي كان يؤذي رسول الله ﷺ أذى شديدا؟ وقوله هذا زادني حيرة وذهولا، ولكن لم يبق لحيرتي أي حدود عندما أشرت لهما بيدي، إذ رغم الجنود الأشداء حول أبي جهل انقضّ عليه الصبيان انقضاض الصقور، (البخاري، كتاب المغازي، باب: فضل من شهد بدرًا)، ووصلا إليه تحت ظلال السيوف المتهاوية عليهما من كل جانب فجرحاه وأسقطاه على الأرض.

يتضح من هذه الواقعة أن إثارة الحرب لهلاك الكفار وخروج المسلمين لمواجهتهم كان سببًا، وكانت عظمة القدر الإلهي -الذي أجراه الله تعالى لمحمد رسول الله ﷺ- كامنة في ضعف تدبير المسلمين. فلولا هذا التدبير لما ظهرت عظمة هذا القدر ولَمَا عرف الصحابة ضعفَهم ولا عظمةَ الله وجلاله كما اتّضح لهم ذلك بعد اتخاذهم الأسباب. الحقيقة أنهم قد رأوا في سيوفهم سيفَ الله البرّاق، وعرفوا من خلال استخدامهم لهذه الأسباب أنهم عديمو الحيلة وفاقدو الأسباب. أنّى لصبيَّين في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرهما أن يقتلا أبا جهل؟ ولكنهما قتلاه، كما قُتل الكفارُ الآخرون في تلك الغزوة على الشاكلة نفسها. ولأجل ذلك قال الله تعالى عن تلك الغزوة: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ﴾ (الأَنْفال: ١٨)، ثم خاطب الله النبي ﷺ وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ (الأَنْفال: ١٨). لا شك أن النبي ﷺ قد رمى بتلك

الأحجار، ولكن الله تعالى قد أمر فهبتْ عاصفة أفقدت الكفار قوة المحاربة، لذلك نُسب هذا الفعل إلى الله تعالى. وعليه ففي ظهور قدر الله تعالى تُودع أحيانًا أسباب للتدليل على انعدام حيلة الإنسان.

ثالثا: تقرن الأسباب مع القدر من أجل إثابة الإنسان على ما يبذله من جهد وسعي. فلو حقق الصحابة الفتح دونما قتالٍ لما نالوا ثواب اشتراكهم بالغزوات مثلًا. لم يكن القدر يحتاج إلى سيوف الصحابة ولكن الصحابة كانوا بحاجة إلى العمل إلى جانب قدر الله تعالى حتى لا يُحرَموا من الثواب.

هذه هي الوجوه الثلاثة الكبيرة لاتخاذ الأسباب إلى جانب قدر الله تعالى.

ويمكن لسائل أن يسأل: لماذا إذن يمنع من اتخاذ الأسباب في بعض أنواع القدر؟

اعلموا أن الله تعالى يريد في هذه الحالة أن يري المؤمن جلالَه من خلال إظهار قدره المجرّد عن الأسباب، وذلك ليعلم أنه لا قيمة للأسباب أمام قدرة الله تعالى، وأن الله تعالى يفعل ما يشاء.

هل يمكن أن يزول القدر الإلهي؟

والآن أجيب على التساؤل: هل يمكن أن يزول القدر؟

الرد المختصر عليه هو: نعم يمكن أن يزول، لأن القدر يعني القرار، ومن يُصدر قرارًا يَقدر على التغيير فيه أيضا. وإن عدم القدرة على التغيير في القرار دليل على ضعف صاحب القرار، والله تعالى منـــزّه عن مثل هذا العيب.

كيف يمكن أن يزول القدر؟

وأخبركم الآن كيف يزول القدر؟

١-: يمكن أن يزول القدر العام الطبيعي بالقدر العام الطبيعي نفسه. فمثلا، يجري القدر العام الطبيعي على الثوب حين تطاله النار فتحرقه، وبالمقابل لو ألقي الماء على النار لأطفأها، وهذا قدرٌ آخر. وهكذا يزيل قدرٌ عام طبيعي قدرًا عامًا طبيعيًا آخر، وعليه فيمحو قدرٌ قدرًا آخر.

ورُبّ سائلٍ يسأل: لقد أزال التدبيرُ التقديرَ في المثال المذكور، لا القدرُ قدرًا آخر؛ ذلك أن الماء لا يُلقى إلا بواسطة إنسان.

فجوابه:

أولا: إذا كان الإنسان هو من ألقى الماء فقد سبق أن أشعل النار إنسانٌ أيضا، إما بشكل مقصود أو غير مقصود. فكما يطلق القدر على الفعل الأول، كذلك يُسمَّى الثاني أيضا قدرًا.

ثانيا: لا يمكن أن يوصف فعل الإنسان بالقدر كما سبق (إلا في الصور التي ذُكرت)، فلمْ نُشِر إلى فعل الإنسان في نشوب النار وانطفائها بل أردنا الإشارة إلى صفة الاشتعال والانطفاء فحسب. فالصحيح هو أن

قدرًا أزال قدرًا آخر، وإلا فلو لم يودع الله تعالى في النار خاصية الإحراق لما استطاع أحد أن يحرق بها شيئًا؛ ولو لم يودع في الماء خاصية الإطفاء لما قدِر أحدٌ على إطفاء النار بواسطته.

هناك مثال آخر: يأكل أحد الفلفل الحار فيسبب له في أمعائه الحروق والقروح، فيقول إنه قدر من الله، ولكنه يستخدم قدرًا آخر مقابله أي يتناول السمن أو أي شيء آخر من الدهنيات أو لعاب موز الجنة مما يزيل القدر الأول، وبالتالي يبرأ الإنسان من تلك القروح.

وأحد أبرز الأمثلة على ذلك ما حدث في عهد عمر ﷺ إذ تفشى وباء الطاعون في الجيش الإسلامي، وكان قائد الجيش الإسلامي أبو عبيدة بن الجراح يرى الأوبئة قدرًا من الله، ولا أهمية للوقاية والاحتياط. ولما زارهم عمر ﷺ وأمر الجيش الإسلامي بالعودة بعد التشاور مع المهاجرين والأنصار، سأله أبو عبيدة:

أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللهِ إِلَى قَدَرِ اللهِ. (البخاري، كتاب الطب، باب: ما يذكر في الطاعون). وهو أمرٌ عُلّمه المسلمون في بعض الأدعية المسنونة، ويُتوقع من كل مسلم أن يقرأ هذا الدعاء قبل نومه وألا يتكلم بعده، ورد في هذا الدعاء:

"لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَى مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ." (البخاري، كتاب الدعوات، باب: إذا بات طاهرًا)، أي لا ملجأ ولا منجى من غضبك إلا باللجوء إليك.

ومَثَلُ استخدام قدر مقابل قدر آخر كمَثَل شخصٍ إحدى يديه خالية ويحمل في الأخرى خبزًا. ثم إذا ابتعد أحدٌ عن يده الخالية واتجه نحو التي فيها الخبز، فهل من المعقول أن يقال له: لماذا تبتعد عن اليد الخالية وتتجه إلى الأخرى؟ فلا يسعه إلا القول: لا أفرّ من هذا الشخص، بل أنتقل من إحدى يديه إلى الأخرى.

٢- إضافة إلى إزالة قدر عام طبيعي بقدر عام طبيعي مثلِه يمكن إزالته بقدر خاص طبيعي أيضا. إذا كانت أسباب دنيوية تجتمع ضد شخصٍ ما ولا يسعه ردّها فيمكنه اللجوء إلى جذب فضل الله تعالى الذي يؤدّي إلى ظهور قدر خاص يكفل إزالة تلك الأسباب والظروف. وقصة إبراهيم عليه السلام خير مثال على ذلك، فالنار تحرق وفق القدر العام، ولكنْ ظهرَ القدر الخاص لإبراهيم عليه السلام حتى لا تحرقه النار فيبقى في مأمن من مضراتها.

كذلك القدر العام هو أن الإنسان يمكن أن يُقتَل إذا تعرض لمحاولة القتل، ولكن الله تعالى قال عن رسول الله ﷺ: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (المائدة:٦٨)، لذلك لم يكن بوسع أحد من العالم كله أن يقتله، لأن القدر الخاص قد ألغى القدر العام بخصوصه، وكذلك حدث مع المسيح الموعود عليه السلام أيضا.

٣- إضافة إلى إمكانية زوال القدر العام الطبيعي بالقدر العام الطبيعي وبالقدر الخاص الطبيعي، يمكن أن يزول القدر الخاص بالقدر

الخاص أيضا؛ كأن يصدر أمر خاص عن شخص ما نظرًا إلى ظروفه وأعماله ، ثم إذا أحدث في نفسه تغييرًا، تغيّرَ الأمر الصادر عنه وفق هذا التغيير.

مثلا، يتحول أحد إلى عائق في سبيل دين الله تعالى ويُضل الناسَ عنه، فيأمر الله تعالى بموته، ولكن يتوب هذا الشخص قبل إجراء الأمر أو يصلح في سلوكه نوعًا ما فيصدر أمر الله بنسخ الأمر الأول الصادر بحقه.

ومثال تغيير القدر الخاص بالقدر الخاص نفسه هو حادثة "آتهم" الذي أساء إلى الرسول الكريم ﷺ كتابة وشفاهة ونعتَه بالدجال (نعوذ بالله من ذلك) ثم ازداد عناداً وأصرّ على ما فعل. وبعد ذلك دخل في المناظرة مع نائب النبي ﷺ ومبعوث الله تعالى المسيح الموعود عليه السلام فصدر قدرُ الله تعالى أن يُلقى في الهاوية خلال خمسة عشر شهرًا إن لم يرجع إلى الحق. وكان ذلك قدرًا خاصًّا. ولكنه لما خاف وأعلن أنه لا يستخدم هذه الكلمات بحق محمد (ﷺ)، وتخلى عن بذاءة اللسان، بل التزم الصمت المطبق، زال عنه هذا القدر.

لو حمل أحد سيفًا وهاجم غيره، فردّ عليه الأخير: بما أنك تقاتلني لذلك استعددتُ الآن لقتلك، بل سأقتلك حتمًا؛ فلو أخفض المهاجم بعد ذلك سيفه عُدّ ذلك رجوعًا منه عن المقاتلة، وليس ضروريًا أن يعانق الشخص الآخر تأكيدًا على رجوعه. يقول معارضونا: كانت النبوءة عن

آلهم تقول بأنه سيرجع إلى الحق، وعليه فكان ينبغي أن يعتنق الإسلام. نقول لهم: لا يعني هذا التعبير رجوع المرء من الضلال إلى الحق مرة واحدة، بل يطلق على من يرجع إلى الحق مرة بعد أخرى. كما أن تعبير "الرجوع إلى الحق" يتضمن معنى بلوغ أحد مرتبة الأنبياء بمن فيهم الرسول الكريم ﷺ أيضا، وعليه فهل كان المقصود أنه لن يُغفَر لآلهم ما لم يصل إلى مرتبة الأنبياء؟ الحقيقة أن هناك درجات كثيرة للرجوع إلى الحق، منها: اعتناق الإسلام، الإيمان بالمسيح الموعود عليه السلام، دخول أحد في الشهداء، بلوغ مرتبة الصديقية.. وإن ارتدع شاتم الرسول ﷺ عن شتمه فهو الرجوع إلى الحق بالنسبة له. ولقد رجع آلهم إلى الحق بالطريق الأخير واستفاد به، وهكذا فقد أزال القدرُ الخاص الثاني القدرَ الخاص الأول الذي كان قد جرى له سابقًا، وأثبتت صفة الله الرحمة سِعتها كل شيء.

علاقة زوال القدر بالنبوءات

ولما كان لصدق نبوة الأنبياء علاقة وثيقة بتحقق النبوءات، ويؤدي عدم تحققها بأعداء الأنبياء إلى رفع عقيرتهم، وبما أن النبوءات ليست إلا فرعًا من فروع القدر؛ لذلك أسلّط الآن الضوء على العلاقة بين القدر والنبوءات.

اعلموا أن النبوءات نوعان؛ نوع يتعلق بإظهار العِلم الأزلي، والآخر بإظهار القدرة. لقد انخدع عامة المسلمين كثيرًا لعدم فهمهم هذا

الجانب من القدر الإلهي، كما انخدع الهندوس لعدم فهمهم جانبًا آخر من القدر الإلهي. وقضية التناسخ الهندوسية أيضا ناشئة عن عدم فهمهم القدر الإلهي، إذ يتساءلون: لماذا يولد أحدهم أعمى، أو لماذا يولد طفلٌ ما أعرج أو معاقًا؟ فينسبونه لاحتمالية ارتكابه بعض أعمال سالفة استحق عليها هذا العقاب، إذ ليس الله تعالى بظالم بحيث يبتليه بهذا العيب الخَلقي دون أي تقصير منه. ولكنهم انخدعوا بسبب خطأين اثنين؛ الأول: لم يفهموا أنواع القدر الإلهي، وكما بيّنت أن القدر نوعان وهما: القدر الطبيعي والقدر الشرعي. يظهر أثر القدر الشرعي عند العمل بالأحكام الشرعية أو مخالفتها، كما يظهر أثر القدر الطبيعي لدى العمل بالأحكام الطبيعية أو مخالفتها. لا يتعلق عمى المواليد وإعاقتُهم بمخالفة القدر الشرعي إنما يتعلق بمخالفة القدر الطبيعي. يثبت طبيًّا أن احتياطات الوالدين ومخالفاتهما تؤثر على أولادهما. كما لا يولد لدى بعض النساء اللائي يعانين ضعفَ الرحم إلا الأولاد المعاقين وذوي العيوب الخَلقية، كما أن بعض أمراض الوالدين أيضا تترك تأثيرًا سيئًا جدًّا على أولادهم مثل السل، وداء الخنازير[1]، والزهري، والهستريا، والجنون وغيرها. فلا علاقة لعيوب المواليد الخَلقية بذنوبهم السابقة، بل هي تتعلق بالنقائص الجسدية للوالدين أو هي نتيجة لعدم الالتزام

[1] داء الخنازير: علة معروفة، وهي قروح صُلْبَة تحدث في الرقبة. (المترجم)

بالاحتياطات اللازمة في أيام الحمل. ولما كان جسم الولد يتشكل من خلال جسم الوالدين لذلك فلا بد أن يرث من نقائص جسمهما وميزاتهما الجسدية. ولا يمكن أن يخرج الولد من تأثير الوالدين إلا إذا غير الله تعالى قانون قدرته بحيث لا يتأثر أحد بعمل غيره. فلو تغير هذا القانون لفسد نظام العالم كله، لأن نظام العالم يدور وفق قانون التأثر والتأثير، فيقبل كل شيء تأثير الآخر سواء كان حسنًا أم سيئًا.

والسبب الثاني الذي أدى بالهندوس إلى سوء فهمهم لهذه القضية هو ظنهم بتجمّع الأرواح في مكان ما، ثم يمسك بها الله ويُدخلها في رحم النساء. ليس هناك أسخف من هذه العقيدة لأن الاعتقاد بها يضطرنا للقول بأن الله تعالى يُكرهنا على جميع أعمالنا، لأنه إذا حان وقت حلول مثل هذه الروح في جسم شخص ما بينما هو مسافر أو لم يتزوج بعد فكيف لتلك الروح أن تحل في ذلك الجسم؟ وعليه فيلزم مع هذه العقيدة التسليم بأن الله تعالى يُكره الناس على أعمالهم الدنيوية بأمره. وهكذا يُقضى على الحرية في كسب الأعمال التي يستحق بها المؤمن الجزاء أو العقاب.

والعيب الثاني الذي ينشأ من هذه العقيدة هو إنكار الأمر المشاهد. وذلك لأن الروحَ تنشأ نتيجةً للتغير الذي يطرأ على النطفة في الرحم، وإن حصل أي نقص في هذا التغير ظلّ الولد بلا حياة أو بحياة مؤقتة ثم مات في رحم والدته. فإذا سلمنا بأن الله تعالى قد جمع الأرواح في مكانٍ

ما لَلَزِمنا إنكار هذا الأمر المشاهد، الأمر الذي لا يسع العاقل إنكاره مطلقًا. (للاطلاع على البحث المفصل حول هذا الأمر يرجى قراءة كتاب المسيح الموعود عليه السلام: "البراهين الأحمدية" الجزء الخامس).

لقد انخدع عامة المسلمين أيضا بمثل هذا الانخداع في فهم النبوءات لعدم فهمهم الفرق بين العلم الإلهي والقدر الإلهي، كما انخدع الهندوس لعدم فهمهم الفرق بين القدر الطبيعي والقدر الشرعي.

وكما أن القدر نوعان كذلك النبوءات نوعان أيضا، أحدهما: النبوءات التي يظهر من خلالها علم الله الأزلي، وثانيهما: تلك التي يظهر فيها حُكْمٌ ما وِفقَ قدرة الله تعالى. لا يمكن أن تزول النبوءات التابعة لعلم الله الأزلي، لأن زوالها يعني حدوث نقص في علم الله تعالى، أما النبوءات الهادفة إلى إظهار قدرة الله أو قوته فقد تزول أحيانا، وعليه فلا يمكن أن تزول النبوءات التابعة لصفة الله العليم، أما التي تكون تابعة لصفة الله القدير فيمكن أن تزول أحيانًا.

لماذا تزول النبوءات؟

هناك أنواع عديدة للنبوءات التي يمكن أن تزول، ومنها:

١) التي يُطلَع فيها الإنسان على نتائج الظروف التي يمر بها.

أي التي يُخبَر فيها الإنسان عما يظهر من نتائج تحت تأثير القدر العام. مثلا، يسافر أحد إلى أرض فيها جراثيم الطاعون، ويكون جسمه

مهيأ للتأثر بها، ولا تتوفر هناك أسباب ينقذ بها نفسه من تأثير تلك الجراثيم؛ ففي مثل هذه الحالة يُطلعه الله تعالى على نتيجة تلك الظروف في صورة يرى نفسه وكأنه أصيب بالطاعون، وذلك لكي يتأثر برؤية هذا المشهد فيتخلى عن السفر إلى أرض الطاعون، أو إذا كان موجودًا فيها فليلتزم بالاحتياطات اللازمة التي تقيه من الإصابة بالطاعون. فلو فعل ذلك نجا، ورؤياه في هذه الحالة تكون صادقة ليست كاذبة.

٢) الصورة الثانية لها هي أن الإنسان يُطلَع على القدر الخاص المزمَع إجراؤه حيال حالته الأخلاقية أو الروحانية.

٣) أن يُخبر الإنسان عن القدر المبرم.

الأول والثاني من هذه الأنواع الثلاثة يزولان ويتغيران بالكثرة. ولكن الأخير منها لا يتغير ولا يزول عمومًا غير أنه يمكن أن يُبدَّل في بعض الأحيان نظرًا لبعض الحالات الخاصة.

والآن أخبركم كيف ولماذا يتغير النوع الأول من النبوءات. فاعلموا أن النبوءة اسم آخر لإظهار قدر الله تعالى، أي لو أُظهِر ما سيؤول إليه أمر الإنسان بحسب أحواله الطبيعية والشرعية فهو ما يسمى بالنبوءة. نأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار ثم نرى أن النوع الأول للنبوءات هو إعلام الإنسان عن نتيجة حالاته الطبيعية، مثلا يُخبَر الإنسان أن صحته الجسدية المتدهورة ستؤدي إلى موته. لنفرض الآن

أن مثل هذا الإنسان لم يتلقّ الخبر السابق، وشرع يهتم بصحته ويلتزم بالاحتياط اللازم، أفلا ينجو من تلك النتيجة؟ فكيف يمكن أن يضيع حق نجاته المنوط بإحداث تغيير معين إذا أخبره الله تعالى عن ذلك سابقا؟! لا شك أنه إذا استخدم الوسائل المتاحة له استخدامًا سليمًا واستطاع تغيير ظروف يوشك أن يتعرض لنتائجها السيئة، فلا بد أن ينجو من المصيبة ويُعصم من الهلاك.

الأحداثُ الحاصلة بتأثير القدر العام تتغير بواسطة القدر الخاص أيضًا. وعليه فيمكن بواسطة القدر الخاص زوال النبوءة الصادرة وفق القدر العام. مثلا، إذا أُخبِر أحدٌ عن موت فرد من أفراد العائلة فلجأ إلى التصدق والدعاء الكثير فقد يؤدي ذلك إلى زوال حادثة الموت؛ ومَثَله كمثل شخص يقصد مكانًا يجهل أحوال الطريق المؤدي إليه، كأنه يسير وهو في الظلام الحالك الذي لا يكاد يرى فيه، وكانت هناك حفرة في طريقه، ولو سار على طريقه لوقع فيها حتمًا، ويراه أحد معارفه في هذه الحالة فيقول له: إلى أين تتجه؟ أتريد أن تقع في الحفرة؟ أو يقول: إنك تتجه نحو هلاك. إلا أن الشخص يواصل طريقه فيصل إلى الحفرة ثم يعود من هناك، ويقول لمن ينصحه بأنك كذاب لأنني لم أقع في الحفرة ولم أمت. فلا بد أنه سيردّ عليه: لو واصلت السير لوقعت، فما دمت امتنعت عن مواصلة السير فقد نجوت من الوقوع فيها. وسيلومه الناس

الآخرون أيضا قائلين: أَتَصِف نُصحَه بالكذب؟ وهل تجازي بهذه الطريقة اللامعقولة شخصًا مَنّ عليك بإنقاذ حياتك. هذا المثال ينطبق على تغيير القدر العام بقدر عام مثله.

أما مثال القدر الخاص فهو أن الذي نُبّه إلى أنه سيسقط في الحفرة أو يموت، يطلب من المنبِّه المساعدةَ لتجاوز المكان من أجل إنجاز مهمة عاجلة، فيأتي المنبِّه بخشبة كبيرة يغطي بها الحفرة فيعبرها الأول دون الوقوع فيها. فهل يجوز لأحد أن يقول للشخص الثاني المنبِّه في هذه الحالة بأنك كذبت، لأن الشخص الأول قد عبر الحفرة بسلام؟ هل من شك في أنه لو لم ينبِّهه الأول لما عرف الثاني شيئا عن الحفرة في الظلام، وبالتالي وقع فيها حتمًا وهلك، ولو لم يساعده على عبور الحفرة لما عبرها.

هكذا يخبر الله تعالى أحيانًا عن مصيبة تحل بشخص معين، والغرض منه تنبيهه أو تنبيه بعض أقاربه على نتائج الظروف التي يعيشونها، فإن غيّروا تلك الظروف أو استعانوا بالله تعالى لعدم قدرتهم على تغييرها فقد تزول تلك المصيبة المحدقة بهم. وفي هذه الحالة ليس من عاقل يعتبر هذا الإخبار كاذبًا، ولا يسعه اتهام الله تعالى بالكذب.

وفي النوع الثاني للنبوءات يُطلَع العبد على القدر الخاص؛ مثلا إذا تفاقم شر أحد لدرجة أنْ أقضّت مظالـــمُه مضاجعَ الناس، وأراد الله تعالى أن

يعاقبه على ظلمه في هذه الدنيا، أَمَرَ الملائكة أن يقضوا على أمواله ورجاله وعزّه وجاهه. وأحيانًا يطلع الله تعالى بعض عباده أيضا على هذا الأمر الصادر منه، فعندما يتناهى هذا الخبر إلى مسامع الشرير يراجع نفسه بسبب جذوة الخشية الإلهية المطمورة تحت رماد الذنوب والآثام، فيشعر بدفء تلك الجذوة في تلك الأيام الزمهريرية ويخرجها من تحت كومة الرماد، فيراها تتقد وتزداد نورًا ودفئًا، فتحدث في قلبه تغييرات وتولد في نفسه رغبات جديدة لدرجةٍ يشعر عندها بدفء محبة الله وخشيته هذا الشخصُ الذي كان قبل بضعة أيام شريرًا مفسدًا، ويندم على أفعاله السابقة فيضع جبينه على عتبة ربه، فتغسلها دموعه. أفلا يرحمه الله الرحمن والرحيم بسبب حالته تلك؟ أفلا يغير قراره الصادر جراء حالة الشخص السابقة ليجعل قراره متوافقا مع حالته الراهنة؟ هل سيرحمه الله فينسخ أمر عقابه أم سيقول بأنني قد أطلعت عبدي على قراري هذا، لذلك لن أغيره ولن أرحم هذا الشخص مهما تاب؟ فلو لم يُطلع الله تعالى أحدًا على قراره حيال هذا الشخص فهل كان له أن يغير قراره وفق التعاليم الإسلامية أم لا بعد هذا التغيير الذي أحدثه هذا الشخص؟ كلا، بل كان سيغيره وفق سنته. فإن كان يستطيع تغيير قراره بعد صدوره وبعد إطلاعه الملائكةَ عليه، فهل سيمتنع عن الرحمة لأنه -بالإضافة إلى الملائكة- أظهر قراره هذا على أحد عباده ثم أطلع بواسطته بعض الناس الآخرين أيضا.

فإن غيّر قراره السابق على النحو المذكور، فهل يحق لمن عنده شيء من العقل أن يقول بأن الله قد كذب والعياذ بالله؟

إذا توعّد سيدٌ مولاه بالعقوبة لحدوث خطأ منه، فندم المولى أشد الندم على ما بدر منه وتاب، ووعد بإصلاح أمره في المستقبل، فعفا عنه سيده ولم يضربه، فهل لإنسان سليم العقل القول بأن السيد كان كاذبًا في كلامه؟ وأنه خالف الوعد الذي صرح به؟

النوع الأول للنبوءات هو ما يُطلَع فيه الإنسان على نتائج القدر العام، وهو يتعلق في معظم الأحيان بالمؤمنين لينبههم الله تعالى إلى الخطر وينقذهم من الآفات الأرضية ويكمل عليهم رحمته، لأن المؤمن كغيره لا يخرج عن تأثير قانون القدرة الإلهية وكثيرًا ما يتعرض للأضرار بسبب مخالفته للقوانين الطبيعية فيخبره الله تعالى أو أحد المؤمنين الآخرين -قبل ظهور النتائج الضارة لمخالفته- عن النتيجة التي ستؤول إليها حالته، فيتقي ذلك المآل بواسطة الدعاء أو الصدقة أو باللجوء إلى قانون آخر للقدرة الإلهية.

أما النوع الثاني للنبوءات فهو ما يصدر فيه الحكم عن شخص ما وفق القدر الخاص، وهو يتعلق بالمتمردين والمفسدين خاصة. والنبوءة التي تزول وفق هذا القدر لهي نبوءة العذاب، لأن نبوءة الوعد لا تزول أما نبوءة الوعيد والعذاب فيمكن أن تزول دائما، لأن زوال هذه النبوءة مدعاة للرحمة الإلهية وتستوجب ظهور عظمة الله تعالى بغفرانه لعباده.

أما القدر الخاص الذي يظهر بحق المؤمن فلا يزول لأنه يكون وعدًا وليس وعيدًا، لأن زواله لا يؤدي إلى إظهار عظمة الله تعالى. وبما أن الوعيد لا يصدر إلا لسبب ما، ويتغير بتغير ذلك السبب، أما الوعد فقد يكون بلا أي سبب، لذلك لا يزول الوعد، لأنه ضد عظمة الله تعالى أن يمتنع -لأي سبب آخر- عن شيء وَعَدَ بإعطائه تلقائيا دون مقابل أو عمل وغيره.

القدر المبرم

ولقد أخبرتكم سابقًا أيضا أن القدر المبرم لا يزول إلا في ظروف خاصة جدًّا. والآن أخبركم ما هو المراد من زوال القدر المبرم. لا يعني زوال القدر المبرم زواله كليًّا في الواقع، بل المراد من إزالته هو تغيير صورته وتبديله بصبغة أخرى. ينـــزل هذا القدر وفق أسرار دقيقة وعميقة، وإن التغيير فيه يؤثر على قوانين أخرى مما يؤدي إلى إفساد النظام. لذلك لا يمكن -وفق حِكَم الله الخاصة- إزالة هذا القدر كليًّا، وإذا زال فإنما يزول بالشفاعة التي هي مقام خاص جدًّا، ولم يُقِم الله تعالى عبادَه على هذا المقام إلا مرات معدودة منذ بدء الخليقة.

والمثال على زوال هذا القدر جزئيًا واقعة سيد عبد القادر الجيلاني رحمه الله. يُحكى أنه تلقى إخبارًا من الله بخصوص مريد له -كان يحبّه كثيرًا- أنه سيزني حتمًا وهذا القدر مبرم. فأخذ يدعو له باستمرار إلى أن

تلقى من الله الرد الآتي: لقد تحقق ما قلناه واستجبنا دعاءك أيضا. اندهش الجيلاني رحمه الله دون أن يعرف شيئًا عن الأمر الواقع. فلما جاء المريد للقائه قصّ الجيلاني عليه الخبر قائلا: سبق أن تلقيت عنك إخبارًا من الله، ولكني لم أخبرك وبقيت أدعو لك إلى أن تلقيت الآن هذا الخبر، فما القصة يا ترى؟ قال المريد: عشقت امرأة ورغم بذل قصارى جهدي فشلت في الزواج منها، فعزمت أن أزني بها وليكن ما يكون. وبينما كنت أسعى لتحقيق هذا الأمر إذ رأيتها في إحدى الليالي في الرؤيا فضاجعتها، فلما استيقظت شعرت أن قلبي قد خلا من محبتها وزالت عني تلك الحالة السابقة. عَلِم سيد عبد القادر الجيلاني رحمه الله من قصته أن القدر الذي استحال زواله نظرًا إلى ظروف هذا الشخص وأعماله، وكان ظهوره وشيكًا، فقد حققه الله تعالى بصورة أخرى وأنقذ هذا الشخص من وقوعه في الإثم استجابةً لدعائه له، وهكذا نجّاه بقدرته الخاصة من مغبة أعماله السيئة.

هل يوحي زوال القدر بحدوث نقص أو عيب في عظمة اللّه؟

هنا ينشأ سؤال: ألا يحدث نقص أو عيب في عظمة الله تعالى عند زوال القدر؟

والرد على ذلك: لا يحدث البتة، وذلك لأن هناك فوائد جمة أيضا في زوال القدر، فإن الإخبار عن هذا القدر ثم إزالته يدل على شفقة الله

تعالى ورحمته، لأنه لما يُطلع الله تعالى عبده على مصيبة نازلة به فإنه يأخذ حذره ويتخذ جميع الاحتياطات اللازمة لينجو منها، وبالتالي ينجو منها بإحسان من الله. فإن إخبار الله تعالى عن القدر قبل حلول أوانه يدل على شفقة الله تعالى بالعباد، وإن إزالته أيضا دلالة على رحمة الله تعالى، وعليه فلا يؤدي زوال القدر إلى حدوث أي نقص أو عيب بل يحقق فائدة كبيرة.

وهناك فائدة أخرى كامنة في إزالة القدر الخاص الذي لا ينـــزل نتيجة القدر العام وإنما ينـــزل بناء على تغير الحالة الروحانية للإنسان، وفي إزالته إظهار لقدرة الله تعالى، بل إذا فكّرنا جيدًا أدركنا أنه بدون إزالة القدر الخاص لا يتحقق إظهار القدرة الكاملة. فمثلا لو كان أحد يعارض الأنبياء عليهم السلام ويحول دون نشر الدين مما يجعله مستوجبًا للعقوبة، فيُطلع اللهُ تعالى نبيَّه على هلاك هذا الشخص. ثم إذا هلك ذلك الشخص رغم توبته، فإنه يُخفي كون الله قادرًا، وأكثر ما يستدل به هو كون الله عليمًا، ولكن لا يعني شيئًا كونه عليمًا ما لم يكن قادرًا أيضا؛ الأمر الذي يمكن أن يجذب محبة الإنسان نحوه. فإن الإخبار عن شيء وعدم زواله سيدل على علم الغيب ولن يكون دليلا على القدرة. بل قد يقع الناس في شبهة بهذه الحالة إذ يظنون أن هذا النبي قد عثر على طريقة ما لمعرفة بعض الأنباء الغيبية، ولكن إذا زال حكم خاص عند زوال

الظروف وتغيُّرِ الأوضاع فإنه يشكل دليلا واضحًا على أن ذلك الحكم كان من الإله القادر الذي يصدر أوامره وفق الظروف والأحوال، وكلما غيّر الإنسان حالته غيّر الله تعالى قدره تجاهه، ويتجلى من خلال ذلك جلاله تعالى وعظمته، ويزداد رجاء العبد لأنه يُدرك أن الله تعالى إذا كان يقدر على البطش فإنه قادر على العفو أيضا وأنه ليس كالآلة المبرمجة. إنني على يقين بأنه لو نظر المرء بعين الإنصاف فسيعلم أنه لو لم تزُل النبوءات الإنذارية لما ثبت كون الله تعالى قادرًا. بل سيتضح وكأنه – والعياذ بالله– مثل معصرة تعصر قصب السكر وتعصر يد صاحبها أيضا إذا وقعت فيها، ولا تبديل لأمر الله تعالى ولا تغيير فيه مهما تاب أحد، ولا فائدة من وراء ترك عدائه وتحري صداقته.

قد تخالج أحدًا شبهة في هذا المقام أنه لو بُدّلت النبوءات بهذه الطريقة فما الدليل على صدقها إذن؟ ولماذا لا يقال في هذه الحالة بأنه خداع ليس إلا، ولا طائل وراءه.

والرد على ذلك هو أن النبوءات تدل على الأسباب الخفية أولا، أي تحتوي على أمور لا تُرى أسبابُها ظاهرةً، ولا مجال للقياس والظن إلا في أمورٍ أسبابها ظاهرة، فمثلا إذا كان أحد مريضًا وأُخبِر عنه أنه سيموت فيمكن أن يكون في ذلك دخل للقياس والظن، أما لو أُخبِرنا بخبر دون أن تكون أسبابه ظاهرة، ثم تظهر آثارُه لاحقًا، فلا يمكن أن يسمى هذا

الخبر تكهنًا أو تخمينًا حتى ولو زال فيما بعد، لأن جزءًا منه طبعَ ختم التصديق على الآخر. وعليه فلا يمكن أن يكون صدق النبوءات مشتبها فيه رغم زوالها، بل مع زوالها تكون كافية لهداية الناس.

الرد الثاني على هذه الشبهة هو أن النبوءات الإنذارية تخص الأعداء عمومًا، والعدو يكون عنيدًا ومستهزئًا بخصمه بشكل عام، ولا يستفيد بالإنذار المسبق إلا قليلا، وقلّما يستفيد الناس من الإنذار بحيث يزول عنهم العذاب. وعليه فكيف يمكن لخمسة أو عشرة بالمئة من النبوءات الإنذارية -التي يتم إزالتها- أن تؤدي إلى الشك في مصداقيتها كلها؟ في حين أن تحقق جميع النبوءات المحتوية على الوعود، وتحقق تسعين أو خمس وتسعين بالمئة من النبوءات الإنذارية أيضا يؤكّد بشكل واضح وجلي على صدق من ينبئ عن هذه النبوءات.

والرد الثالث هو أن الأخبار التي تُعطى تحت تأثير القدر الخاص ليست نتيجة أمور طبيعية، بل تكون نتيجة أمور روحانية، وهي النبوءات التي يثير المعارضون حيالها شكوكًا أكثر. على سبيل المثال ما أُنبِئ عن "ليكهرام" بأنه سيُقتل بسبب إساءته إلى النبي ﷺ، أو ما أنبئ عن آتهم بأنه سيُلقى في الهاوية بجريرة إساءته إليه ﷺ، أو ما أُخبِر عن أحمد بيك وصهره بأنهما سيهلكان؛ فلم تكن هذه العقوبات نتيجة لأي أمر طبيعي. لو قتل "ليكهرام" شخصًا ثم قيل بأنه سيُقتَل بهذه الجريرة لكان أمرًا

مختلفًا، وكذلك لو حُددت لآهم أو أحمد بيك عقوبةٌ نتيجةً لأمور طبيعية لكان بالإمكان الاعتراض عليها، غير أن جرائمهم التي استحقوا بسببها تلك العقوبات كانت جرائم روحانية، فإن تحقق ولو بعض أجزاء من مثل هذه الأنباء لكان ذلك دليلا على أن المخبر عنها على علاقة مع الله تعالى، إذ لولا ذلك لما استطاع أن يخبر عن مثل هذه الأخبار التي لا أثر لها في الأمور الطبيعية، ولأنه لا يسع أحدًا الإخبارُ عن عقوبة الآثام الروحانية إلا الله، وأنى للإنسان أن يخبر بمجرد النظر إلى الآثم الروحاني عن كيفية تلقّيه العقوبة؟!

وإن قيل: ما ذكرتَ أن إخبارَ أحدٍ في كثير من الأحيان يصوّر له حالته الموجودة، أي يُصَرَّح فيه عن نتيجة الظروف التي يمرّ بها هذا الشخص حاليا، ولكن لماذا لا يُخبَر بشكل واضح بأن حالتك الموجودة أو حالة فلان، تؤدي إلى نتيجة كذا وكذا، وذلك حتى لا يشك الناس في الرؤى والإلهامات؟ وإن أُخبِر الناس بهذه الصراحة لما تعرضوا للابتلاء.

وردّه كما يلي:

أولا: مَن كان في قلوبهم مرضٌ يقعون في الشبهات في كل حال، فمثلا نلاحظ ذكر شرطٍ بشكل واضح في نبوءات حضرته عليه السلام ومع ذلك يثير الناس الاعتراضات. لقد صُرّح في النبوءة المتعلقة بالطاعون أنه لن ينتشر في قاديان طاعون جارف كما ينتشر في القرى الأخرى، ومع ذلك يقول

الناس معترضين بأنه كان ينبغي ألا تحدث في قاديان حالة واحدة من الطاعون.

ثانيًا: هناك فائدة أخرى وهي أن الغاية المتوخاة من الرؤيا أو الإلهام تتحقق بشكل أفضل في اتّباع هذا الطريق للإخبار. يُعطى من خلال رؤيا منذرة أو عن طريق الوحي خبرًا عن المستقبل، ويهدف -علاوة على أغراض أخرى- إلى أن يتنبّه هذا الشخص المعني ويفكر في إصلاحه، أو تتم عليه الحجة إن لم يصلح نفسه، كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٦).

باختصار، إن النبوءات الإنذارية تأتي لإقامة الحجة، وتُعطى بها فرصة أخيرة للإصلاح لمن تصدر ضده، وإن لم يستفد بها أقيمت بذلك الحجة عليه. ومن الثابت المتحقق أنه لو أُرِي أحد عن ذاته بأنه محموم، وشعر بمعاناة الحمّى، فسيؤثر فيه هذا الوضع تأثيرًا مغايرًا عن تأثير قول أحدهم له بأن ظروفه توحي إلى إمكانية تعرضه للحمى. كذلك لو أُخبر أحد من الغيب بأن فلانًا قد قُدّرت له عقوبة معينة بسبب لادينيته فسيكون تأثير ذلك مغايرا لتأثير قول أحد له بأن فلانا قد يتعرض للعقوبة لذلك السبب. فإن كانت العقوبة قد قدّرت بسبب أعماله فمن حقّه أن يُخبر حتمًا على هذا النحو.

وإن قيل: لَم لا يخبر الله تعالى عن الحالة الأخيرة المتوقع حدوثها في نهاية المطاف؟ ولماذا يخبر عن الحالة المتوسطة التي يرتاب فيها الناس؟

فأحد الردود عليه كما أخبرت سابقًا أن الغاية من النبوءات هي الإصلاح، فكيف يمكن إصلاح الناس إن لم يُخبَروا عن جانب القدر الذي يمكن أن يتغير؟ الحق أن ألوفًا من الناس ينجون من الهلاك نتيجة هذا النوع من الإظهار للقدر، وباعثه رحمةُ الله تعالى.

ثانيا، كما ذكرت سابقًا أن لله صفتين من صفاته نود إلقاء الضوء عليهما هنا هما العليم والقادر. فلو أخبر عن جزء القدر الذي لا يتبدل لثبت كون الله تعالى عليمًا دون كونه قادرًا. فالإخبار عن القدر المتوافق مع الظروف الحالية ضروري لإظهار قدرة الله تعالى، وبدون ذلك لا يمكن أن تتجلى للإنسان قدرةُ الله الكاملة. إن إظهار مثل هذا القدر المتوافق مع الظروف الحالية ضروري من أجل إظهار قدرة الله تعالى، وبدون ذلك لا يمكن أن يتأتى ظهور كامل لقدرة الله تعالى، بل الذريعة الوحيدة لإظهار قدرة الله على الإنسان هي أن يصدر أمر من الله تعالى وفق حالته الروحانية الراهنة، فإن ظلت تلك الحالة قائمة عُومل وفق ما تم إظهاره له، وإن تغيرتْ حالته تغيّرتْ معاملته أيضا.

وإن قيل: بما أن الناس يتعرضون للابتلاء جراء هذه النبوءات لذلك كان الأفضل ألا يعطي الله تعالى مثل هذه الأخبار، فردّه: لا يسع الله تعالى ترك الحق خوفًا من شر الشرير والمفسد. وكيف يمكن أن يترك الله تعالى -نظرًا إلى شر الأشرار والمفسدين- أمرًا تظهر من خلاله رحمةُ الله

تعالى وتثبت قدرتُه ويثبت كونه الفاعلَ بالإرادة. فماذا عسى أن يكون المانع لمثل هذا الإخبار غيرُ ضجة الناس الذين وطّنوا أنفسهم على المعارضة؟ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ (الإسراء: ٦٠)، أي هل نمتنع عن إرسال الآيات لأن الشريرين قد كذبوها في الأزمنة الماضية؟!

فمما يخالف سنة الله تعالى وعظمته أن يترك أمرًا يكفل إظهار رحمته وقدرته على العاقلين لأن الأشرار يتعثرون جراءه. ثم ماذا عسى الشرير أن يتعثر به أكثر من تعثره الأصلي، فلماذا يُحرم بسببه المؤمنون من الانتفاع بهذا الأمر؟

وأذكر فيما يلي -لهداية المعترضين على مثل هذه النبوءات مع كونهم مسلمين- من الإسلام نفسه بعض الأمثلة التي لم يذكر فيها الله تعالى أمرًا أخيرًا بل أظهر مشيئته تدريجيًا، أو أخبر فيها عن عاقبة مختلفة وفق كل حالة. وأحد هذه الأمثلةِ الحدثُ العظيم الذي يُعرف بين المسلمين بالمعراج، الذي يرتبط بأساس الإسلام ارتباطًا لا يمكن لأي مسلم ذي علم أن يتجاهلَه. يقول النبي ﷺ في ذكر أحداث المعراج أنه أُمِر أولا بخمسين صلاةً، ثم بمشورة موسى عليه السلام عرض ﷺ الأمر مرة بعد أخرى حتى تلقّى أمر الصلوات الخمس في نهاية المطاف. (مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات).

فالظاهر الآن أن الله تعالى يعلم سلفا أن موسى عليه السلام سيقول ذلك للنبي ﷺ وهو بدوره وفق تلك المشورة سيطلب مني التخفيف في الحكم. فالسؤال المطروح الآن: لماذا أمر الله تعالى أولا بخمسين صلاةً ثم استبدلها بخمس ؟ ولماذا لم يأمر بخمس صلوات منذ البداية؟ فردّكم على هذا هو ردّنا على تغيير النبوءات.

والمثال الثاني هو الحديث الشهير الذي يذكر آخرَ شخص في جهنم، والذي يخرجه الله تعالى منها وفق رغبته، فيرى شجرةً عظيمة، فيبدي رغبته ليستظل بظلها، فيعطيه الله ما شاء بعد أن يأخذ منه عهدًا وميثاقًا أن لا يسأل شيئًا غيره، إلا أنه يرى شجرة أخرى أكثر خضرةً من الأولى، فيسأل الله تعالى أن يقدّمه إلى ظلها فيعطيه ما شاء بعد تذكيره بعهده، وأخذه عهدًا وميثاقًا آخر ألا يسأل شيئا غيره، وأخيرًا يتمنى هذا الشخص أن يدخله الله تعالى الجنة، فيضحك الله تعالى ويدخله الجنة. (مسلم، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا). ويتضح من هذا الحدث أيضا كيف يعطي الله تعالى خبرًا متوافقًا مع كل مناسبة، فلقد أخذ الله تعالى منه عهدًا ألا يسأل شيئا غيره، ويفهم من هنا أنه لا يريد أن يدخله الجنة، في حين أنه ليس صحيحًا، بل كان الله تعالى يريد إدخاله الجنة، وإن تقريب الله هذا الشخص إلى الجنة رويدًا رويدًا يثير نفس الاعتراض وهو: لماذا لم يدخله الله تعالى الجنة مرة واحدة؟ فالرد

عليه سيكون ردًّا أيضا على الاعتراض على تغيير هذا النوع من النبوءات.

وأقول في النهاية مرة أخرى بأن النبوءة اسم لإظهار القدر، من المسلّم به عند المسلمين أن القدر يزول، فلا وجه أن يُحرَم الإنسانُ من فائدة يجنيها جراء زوال ذلك القدر الذي أخبر عنه سابقًا.

خلاصة القول، إن القدر واكتساب الأعمال يجريان في وقت واحد، بحيث أن القدر يجري من الله تعالى منفصلا ويضاف إليه تدبير الإنسان فتكتمل أعمالُه. هناك قدر لا دخل فيه لأعمال الإنسان مطلقًا، أما هذا القدر الذي نذكره فهو لا يتعلق بالأعمال وإنما بجزائها. وإن صدر هذا القدر أحيانًا بخصوص الأعمال فهي تلك التي لا يُسأل عنها الإنسان عمومًا، اللهمّ إلا أن تكون تلك الأعمال نتيجة لأعمال أخرى وجزاءً لها. فإن الحج والصلاة والصوم والزكاة وغيرها، والكذب والزنا وقطع الطريق وغيرها أيضا من أعمال الإنسان التي يكتسبها بحسب رغبته ورضاه، وبالتالي فإنه يستحق عليها جزاء أو عقابًا. رغم كل ذلك يقوم جاهل ويقول بأن الله يجعلني أسرق أو أزني، ولا يدري أن قدر الله تعالى لا يجبر على ارتكاب السيئات، فإنه طاهرٌ قدّوس فلا يطالب إلا بالأعمال الطيبة والطاهرة، وعليه فلو كان قد جرى قدر الله تعالى بهذا الخصوص لجعل كل إنسان يعمل صالحًا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾

(السجدة: ١٤)، أي لو كنا نريد إكراه الناس لجعلناهم جميعًا مسلمين و لم نجعل أحدًا كافرًا. فلو كان الله تعالى يمارس الإكراه على الناس لجعل الجميع يقومون بأعمال صالحة فحسب. ولكن العجب أن الإنسان ينسب إلى الله تعالى أفعالا غير طاهرة، ويقول بأن الله تعالى جعلني أسرق ولا دخل لي في هذه الفعلة، في حين أنه بنفسه يجعل القدرَ السيئ يسري عليه. فليس صحيحًا أن الله تعالى يُجري قدرًا سيئًا يضطر الإنسان إلى ممارسة أفعال سيئة. نعم، هناك قدر سيء يجريه الشيطان ويجعل أولياءَه وأتباعه يتصرفون بحسبه. ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ (النحل: ١٠٠)، وبما أن مثل هؤلاء الناس يتركون الله ويصيرون أتباع الشيطان فيتركهم الله تعالى أيضا، وبالتالي يتسلط الشيطان عليهم. فمن يعمل سيئًا ثم يقول بأن الله يجعلني أفعله فإنه يرتكب إساءة بالغة إلى الله تعالى. وهناك مقولة مروّجة في بلدنا يرددها من يصدر منه فعل سيئ فيقول: ما ذنبي في ذلك فإن الأمر كان قدرًا مقدرًا. هذه قلة أدب وإساءة إلى الله، لأنه من الخطأ القول بأن قدر الله تعالى يضطر للأعمال السيئة، ولكن القدر السيئ يجري من الشيطان على الذين يصيرون عبدة له حتى يأتي عليهم وقت لا يسعهم التخلص بسهولة من ربقة الشيطان ولو أرادوا ذلك، أي أنهم يريدون التخلي عن ارتكاب ذنب ما ولكنه يصعب عليهم، ثم تبلغ حالتهم مستوى لا يريدون فيه التخلص من مخالب الشيطان بل ينضمّون إلى سربه.

والآن أريد إخباركم عن الأضرار الناجمة عن عدم إيماننا بالقدر الإلهي وبعدم صدوره من الله، كما أخبركم عن منافع الإيمان به وفوائد صدوره منه.

هذا سؤال هام يحتاج إلى التفكير الكثير فيه، ولكن الأسف أن المتصوفة ومشايخ الظاهر المتمسكين بالقشور لم ينتبهوا إليه.[1]

[1] وهنا سأل أحد: ما المراد من الإيمان بالقدر خيره وشره؟ فقال حضرته: معناه أن الجزاء على الخير والعقاب على الشر أيضا من الله. ويعني الإيمان بالقدر خيره وشره أن يؤمن بأنه إذا زرع المرء قمحا يجني قمحًا، وإن زرع شعيرًا فلا بد أن يحصد شعيرًا، وينبغي ألا يتّهم فيه اللّهَ تعالى بظلم. (منه)

(بما أن الوقت كان قد تأخر وكان البرد قارسًا، وكان جزء لا بأس به من خطاب حضرته باقيًا، لذلك أنهى خطابه هنا، وأَجّل الجزء المتبقي إلى اليوم الثاني.

وإليكم الجزء التالي الذي تناوله حضرته في اليوم الثاني).

إزالة بعض الشبهات المتعلقة بمسألة القدر

كنت أريد بعد شرح مسألة القدر الإلهي أن أذكر لكم منافع الإيمان به، وكنت أنوي أن أتناول هذا الموضوع الآن ولكن كتب لي أحد الإخوة بعض الأسئلة، وأرى أولًا أن أردّ عليها باختصار.

يسأل هذا الأخ: من أين اكتسب الشيطان قدرته على الإغواء والإضلال؟

لقد ذكرت بالأمس أنه عندما يجعل الإنسان أفكاره شيطانية بسبب التعلق بالشيطان تنشأ للشيطان أيضا علاقة معه، فيبدأ بإضلاله. فقد نشأ هذا الضلال من نفس الإنسان. وأضرب لذلك مثالا أنه إن رافق شارب خمر سكيرًا آخر وتبعه حيثما ذهب لمعاقرة الخمر فهل يصح قوله: ما أنا إلا تابعه، يسير بي حيث يشاء؟ فإنما يتبعه برضاه ويرافقه لكونه مثله مدمن خمر يبحث عن نشوتها.

لقد ذكر صاحب "المثنوي المعنوي" هذه العلاقة بمثال لطيف حيث قال: أمسك فأر بحبل جمل وأخذ يجره، فَزها الفأر فخورًا مسرورًا لظنه اكتساب قوة كبيرة مكّنته من اقتياد حيوانٍ كبير كالجمل. وبينما هو على هذا الحال إذ وصل نهرا. فلما كان الجمل لا يحب الدخول إلى الماء

توقفَ عند اقتراب الفأر إلى الماء. بذل الفأر قصارى جهده ليجر الجمل نحو الماء إلا أنه لم يطاوعه، فسأله الفأر:

أيها الجمل! ما سبب الامتناع؟ وقد كنت لي المطواع. فقال الجمل: لقد اتبعتك إلى حيث شئتُ اتباعك، أما الآن فما عدت أريد، ولن أطيعك. باختصار، لما كان الفأر يجر الجمل، كان يتراءى للناظرين أن الجمل يتبع الفأر، ولكن الحقيقة أن الجمل كان يتوجه من تلقاء نفسه حيثما أراد، لا حيثما يريد الفأر. وعليه ففي الظاهر يبدو وكأن الشيطان قد تسلط على الإنسان، ولكن في الحقيقة لا سلطان له على الإنسان، بل الإنسان يضع حبله في يد الشيطان ويتبعه من تلقاء نفسه. ومن يريدون التخلص من الشيطان فإنهم يرفضون اتِّباعه بكل شدة، فبالتالي يهرب منهم الشيطان مذعورًا.

والسؤال الثاني هو: ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ (التكوير: ٣٠)، ويترشح منه أن جميع أعمال الإنسان تصدر تحت مشيئة الله تعالى.

لا تعني هذه الآية ما خطر ببال السائل، فقد سبقتها الآيات التالية: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٧-٣٠). يقول الله تعالى:

أين تذهبون؟ فليس القرآن الكريم إلا ذكر ونصيحة من الله تعالى لمن يصلح أموره ويستقيم على الحق. ثم يقول تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي إن سعيكم للاستقامة لن يورثكم إنعامًا من الله ما لم يصبح رضاكم متوافقًا مع رضى الله تعالى، أي ينبغي أن تصبح أعمالكم وعقائدكم متوافقة مع الشريعة، فآمنوا بما أمر به الله تعالى وأحسنوا العمل به، أي قوموا بما أمركم الله به من القيام بالصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها، وعند ذلك ستشعرون بتأثير هذا الكلام الطيب وإلا فلا. وهو أسلوب يشبه القول لأحد: سنفرح بكم إذا عملتم بحسب مشيئتنا. فلا يثبت من هذه الآية أن الله تعالى يجعل الإنسان يقوم بجميع أعماله ولا دخل للإنسان فيها.

أما الآية: ﴿إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ (الرعد: ٢٨)، فلم يكن هناك داع للسؤال عنها، إذ كُتب كثيرًا عنها في أدبيات جماعتنا، ولقد بيّن الله تعالى هنا أنه لا يُضِلّ أحدًا إلا الذي يصبح بنفسه كذلك. يقول الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ (غافر: ٣٥).

ويقول تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٧).

ويقول أيضا: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ﴾ (التوبة: ١١٥).

أي كيف يمكن أن يرسل الله تعالى الهدى ثم يُضل الناس بنفسه؟!

فلا يُضلّ الله تعالى إلا الذي يَضِلّ بنفسه. والحق أن من يغمض عينيه لفترة طويلة فلا بد أن يُعمَى يومًا، كذلك من لا ينتفع بالبصر الروحاني فلا بد أن يفقده، ولما كان الله تعالى هو من وضع هذا القانون فلا بد أن تُنسب إليه نتيجته.

أما حديث: "جَفَّ الْقَلَمُ" والأحاديث المشابهة له، فينبغي أن نتذكر بخصوصها أنه ينبغي أن نجعلها أولا خاضعة للقرآن الكريم، ويجب أن تفسّر بما يناسب الآيات القرآنية، فلا يكون المراد منها إلا القدر العام، أي قانون القدرة الإلهية، وأي شك في هذا أن قانون القدرة الإلهية جار منذ بدء الكون. أو لا يُراد به كل عمل بل أريد به القدر الخاص فحسب، وأي شك في أن الله تعالى هو من يجري الأقدار الخاصة. أو يُراد به العلم الإلهي، وهذه هي الأمور المكتوبة في اللوح المحفوظ.

والآن أذكر شبهة منتشرة في فئة المثقفين من الناس. لقد زاد في الناس الاهتمام بالبحث والتحقيق في هذه الأيام فيريدون أن يعرفوا كنه كل أمر وسبب حدوثه. فمثلا، البذرة تنبت. وقد أجريت البحوث عن سبب نباتها. ظنّ الناس فيما سبق أنه لما تُبذر بذرة في الأرض يأتي ملك فيسحبها إلى الأعلى، أي يُنبتها، ولكن لا يقبل أحد الآن مثل هذه الأمور، بل يريد أن يعرف لماذا تنبت البذرة وما هو سبب نباتها؟

كذلك تُجرى بحوث أخرى لمعرفة وجود أشياء شتى، مثلا نكون تحت الشمس وفجأة يظللنا الغمام، فمن أين يأتي الغمام فجأة؟ يقول أصحاب العلوم الجديدة أن الغمام تشكل منذ أيام كثيرة، وانطلق من أماكن بعيدة ليصل الآن فوق رؤوسنا، أو أنه تشكَّل بسبب البرودة في الأجواء فوقنا من جزيئات بخار الماء المدفوعة مع الهواء من أماكن بعيدة. فلو ذُكر لهؤلاء أننا دعونا من أجل نزول المطر فجاءت السحب الماطرة، لسخروا منا قائلين: لقد تم الدعاء الآن، أما الغيوم فكانت قد تشكلت قبل أيام كثيرة وانطلقت، فكيف يمكن أن يُعَدّ مجيؤُها استجابة للدعاء؟ تُثار اليوم مثل هذه الاعتراضات، إلا أنها باطلة كلها.

نؤمن بوجود سبب لتشكل السحب، ولكن السؤال هو: هل كان الله تعالى يعلم أم لا -قبل مليون سنة أو ملايين السنين أو قبل أية مدة أخرى- بأن عبدي فلانًا في وقت معين وفي مناسبة معينة سيقوم بالدعاء؟ ثم أكان يعلم أم لا أنه سيساعده؟ إذا كان الله تعالى يعلم ذلك فإن السحب قد تشكلت -مهما كان زمن تشكلها قديمًا- لأن عبدًا من عباد الله كان سيدعو، وكانت رحمة الله تعالى ستبلّغ السحب هناك. وعليه فإن مثل هذه الاعتراضات باطلة إذ يمكننا القول بأن الأمر المتحقق عقب سبب سابق ليس بالضرورة سببًا مباشرًا لأصل حدوث ذلك الأمر السابق، بيد أنه لا يمكننا إنكار أن الأمر السابق نشأ إرهاصًا لتحقيق

الأمر اللاحق. ألا يتم توفير أشياء تُستجلب من بعيد قبل نزول الضيف؟ فهل كان جلبها قبل مجيئه دليلاً على أنها لم تُجلب لأجله. إن الله تعالى عالم الغيب وكان يعلم أن عبده سيدعو لتمطر في وقت معين، لأجل ذلك فإنه أعطى من بدء الكون مثل هذه الأوامر أن تتهيأ في ذلك الوقت المعين أسباب لتحقيق رغبة ذلك العبد. فكان نزول المطر نتيجة لقدر خاص من الله تعالى ظهر في ستار القدر العام.

والسؤال الآن: كيف عرفنا أن القدر الإلهي كان وراء هذا الأمر و لم يكن ذلك نتاج أسباب عامة للقدرة الإلهية؟ لمعرفة هذا الأمر ينبغي أن ننظر فيما إذا كانت بعض الأحداث -التي لا يُرى نظيرها في القاعدة العامة في الدنيا- تحدث بشكل متواتر بحيث لا يمكن اعتبارها من قبيل الصدفة؟ فلو ثبت حدوثها لعلمنا أنه قد تمّ تحت تأثير قدر خاص من الله. فمثلا إذا رأينا بشكل متواتر تجمع الغيوم بعد الأدعية فلا يمكن وصفه بالصدفة، بل لابد من تحديد سبب آخر له.

إضافة إلى ذلك، لا يمكن عدّه من المصادفات لسبب آخر وهو أن هناك تسلسلًا واطّرادًا لهذه الأمثلة إذ حصل مثل ذلك مرارًا وتكرارًا استجابة لأدعية الصلحاء عبر القرون، فلا يمكن وصفه "صدفة". وزد على ذلك أن من يعتبرون هذه الأمور "صدفةً" يصرحون بأنفسهم أن لا شيء في العالم يُسمّى بالصدفة، بل لا بد أن يكون سبب لكل حادث.

ليس هناك مجال للتطرق إلى هذه القضية مفصلًا وإلا أخبرتُكم عن فهمهم معنى الصدفة. على أية حال، إذا كانوا يرون بعدم حدوث أي أمر من أمور الدنيا "صدفةً" فلماذا يعتبرون ما يخالف عقيدتهم "صدفةً"؟

باختصار، ينبغي أن تتذكروا جيدًا أن قدرًا من الله قد جرى سابقا، ولا يمكن إنكاره نظرًا لوجود أسباب ظاهرة له.

أضرار ناجمة عن سوء فهم مسألة القدر

والآن أذكر بكل أسف تلك الأضرار التي يتعرض لها الناس بسبب عدم فهمهم لهذه المسألة. يتميز القدر الإلهي بمكانة سامية في إحياء الناس، ولكن للأسف ما قدره الناس حق قدره، بل عاملوه كما عاملوا القرآن الكريم الذي سيقول عنه النبي ﷺ يوم القيامة في حضرة الله: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:٣١)، مما لا شك فيه أن المراد من ﴿قَوْمِي﴾ هنا أولئك الذين لم يصدّقوا النبي ﷺ زمن بعثته، ولكن هذه الكلمة تشمل المسلمين لأنهم القوم الحقيقيون للنبي ﷺ، انظروا كيف يستخدمون القرآن الذي جاء لهدايتهم، والذي قال الله تعالى عنه إنه أنـــزله ليأخذهم إلى الدرجات العلى، فمثلا لا يسمع أحدٌ منهم في حياته كلمة واحدة من القرآن، ولكنه إذا مات باتوا يقرأونه عليه ويُسمعونه. مع أنه لن يُسأل بعد الموت كم مرة ختم الناس القرآن على قبره، إنما يُسأل: هل عمِلتَ بهذا القرآن في حياتك أم لا؟

ومن استعمالاتهم للقرآن الكريم أنهم يحلفون به أيمانًا كاذبةً ولو مقابل نصف روبية، وهكذا يُتّخَذُ القرآن ذريعةً لغصب حقوق الآخرين.

ومن سوء استعمالهم للقرآن الكريم ما يفعله بعض المشايخ. فإنه إذا مات أحد حضر أهله بالمصحف إلى جماعة من المشايخ لتُغفَر به ذنوب الميت. فيجلس المشايخ في شكل حلقة، فيأخذ أحدهم المصحف ويناوله للآخر قائلًا للميت: لقد وهبتُ لك هذا القرآن. وهم يظنون أن هذا سيؤدي إلى سقوط ذنوب الميت وغفرانه! والحق أن هذا لا يحط أي ذنب من ذنوب الميت، وإنما يحبط إيمان هؤلاء المشايخ وأقارب الميت.

ومن استغلالهم للقرآن الكريم أن بعض المشايخ يشتري نسخًا من المصحف بسعر نصف روبية لكل نسخة ويحتفظ بها، ثم بعد موت أحدٍ إذا أتاه أقارب الميت لشراء المصاحف طالبَهم بدفع سعر عالٍ جدًا، فإن قالوا له: سعره أقل من روبية واحدة، ردّ عليهم الشيخ: هل يمكن أن يُشترى القرآن بثمن قليل؛ ألم تعلم أن الله تعالى قد نهى عن ذلك في قوله ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (البقرة:٤٢)؛ فكيف يمكن أن نأخذ ثمنًا قليلًا للقرآن الكريم. ولكن هذا الشيخ الجاهل لا يعلم أن القرآن الكريم قد صرح وقال: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ (النساء:٧٨)، أي جلّ متاع الدنيا قليل. ومعنى ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ألا تبيعوه مقابل الدنيا ومتاعها.

وأحد استعمالاتهم للقرآن الكريم أنهم يغلّفونه في غلاف جميل ومنمّق، ثم يعلّقونه على الجدار. أو يضعونه في محفظة صغيرة ويعلّقونه في العنق لكي يظن الناس أنهم من أهل الصلاح والورع، وأن القرآن لا يفارقه في أي وقت.

باختصار، كما يسيء المسلمون استعمال القرآن الكريم ولا ينتفعون به كذلك يتعاملون مع مسألة القدر.

وإن أحد استعمالاتهم السيئة للقدر هو أنهم يتخذونه سترًا لإخفاء خجلهم وحرجهم. مثلا إن ذهب أحدهم لإنجاز عمل ما وأخفق فيه، فأخذه الارتباك أن الناس سيقولون عنه: لقد ادّعيت ادعاءات كبيرة ولكنك في النهاية لم تستطع إنجاز هذا العمل، فيقول لإزالة هذا الخجل والحرج: ماذا كنت أستطيع فعله إذا كان الأمر قد قُدّر هكذا. فحيثما يواجهون الذلة والهوان ينسبونه إلى الحظ والقدر، في حين أن القدر لم يصدر ليُغرق الناس في وحل الندم بل لمنح الرقي والتقدم، فمن يتضرر بعد ذلك إنما يتضرر بعدم استفادته بالقدر.

ثم إنهم يتذكرون القدر عند إظهار اليأس. فمثلا، عندما ينهارون أثناء العمل ويفقدون العزيمة –وهذه الحالة أسوأ ما يكون عليه الإنسان لأن إظهار اليأس يدل على الجبن والدناءة الكبيرين، ويتجنبه الإنسان النبيل– يعبرون عن يأسهم وقنوطهم بالكلمات التالية: يبدو أن هذا الأمر لم

يكن مقدّرًا لنا ولا مكتوبا في حظّنا. أي كنا مستعدين لخرق السماء إلا أن الله تعالى حال دوننا، فبما أن مشيئة الله لا تريد هذا العمل لذلك لا بدّ أن نتخلى عن السعي لإنجازه، وهكذا فإنهم يتخذون القدر الإلهي ذريعة لتغطية ضعف عزيمتهم ودناءتهم، ولا يستحيون من سوء استعمالهم للقدر الإلهي، ولا يتدبرون في ادعائهم العلم بأن قدر الله تعالى كان كذلك! ومتى كانوا مقربين لله تعالى إلى هذه الدرجة بحيث أخذ يكشف لهم أقداره؟!

ثم إنهم يستخدمون قضية القدر الإلهي غطاء لكسلهم، ولعل تصرف ذلك الثعلب كان أفضل منهم حين عبر مكانًا فرأى عنبًا على الدوالي فحاول الوصول إليه بالقفز للأعلى إلا أنه كان عاليا جدًّا فلم يصل إليه فاستسلم وانصرف من هناك قائلا: لا علينا، إنه حصرم. فكأنه لم يتركه لأنه ليس في متناوله بل لأنه حامض. أما هؤلاء فيبدون نموذجًا أسوأ من ذلك إذ لا يبذلون سعيهم لتحقيق عمل ما ويحاولون ستر كسلهم قائلين: إذا كان في نصيبنا حققناه لا محالة، ولا يفكر هؤلاء الجهال أنهم متى كانوا يستحقون كل هذا الاهتمام بحيث يغير الله تعالى لهم قانونه وبعد ذلك يُجري لأجلهم قدرًا خاصًّا فيرزقهم مبتغاهم. لو تركوا بعد قولهم هذا كل الأعمال لربما كان لقولهم وزن، ولكنهم لا يفعلون ذلك، بل يسعون لإنجاز ما لا بد منه من أعمالهم، ولا يتأخرون في إتمام عمل

لا يحتاج منهم تضحية كبيرة ولا جهدًا كبيرًا. فإن كان إيمانهم بالقدر كما تقدّم فلماذا يقومون بإنجاز الأعمال الصغيرة إذن؟

الحق أن تصرفهم أسوأ من تصرف الثعلب المذكور، ليس فقط لأنه ترك رغبته بعد المحاولة وهؤلاء تركوا عملهم دون بذل الجهد، بل لأنه نسب تركه للعمل إلى حموضة العنب أما هؤلاء فينسبونه إلى الله تعالى!

إنهم كسالى في واقع الأمر ولا ترضى أنفسهم القيام بأي عمل، ويفرون من بذل الجهد بل ويعتبرونه أسوأ من الموت، ولكن عندما يقال لهم أن يسلكوا في سبل الرقي يردون قائلين: ما الذي يمكننا الحصول عليه بجهدنا؟ بل إذا كان شيء في نصيبنا فلا بد أن نفوز به تلقائيا، وهكذا يحاولون إخفاء ضعفهم في رداء القدر.

ثم إنهم يستخدمون القدر كشتيمة، أي من يريدون شتمه يقولون له: يا له من سيئ الحظّ. كأن الحظ أيضا كلمة سيئة عندهم على شاكلة الكلمات السيئة الأخرى. كأنهم يرون استخدام نعمة القدر الإلهي لبذاءة لسانهم في حين أن الله تعالى لم يُجرِ القدرَ إلا ليطهر به الناس أنفسهم.

ثم هناك استعمال مشين آخر يستخدم للإساءة إلى الله. لقد خلق الله تعالى القدر لتتوثق علاقة الإنسان مع الله ولكنهم يستخدمونه استخدامًا معاكسًا، فمثلا إن مات ابنُ أحدهم يقول: اللهم لو مات لك ابن لعرفت آلام فراقه، والعياذ بالله. كأن الله تعالى مارس عليهم ظلمًا كبيرًا ويريدون أن يقع مثل هذا الظلم على الله أيضا.

كان هناك رجل أصبح لاحقًا من الأحمديين المخلصين، وعلى علاقة حميمة بالمسيح الموعود عليه السلام. ولكن ظل حضرته غاضبًا منه لمدة عشرين عامًا قبل دخوله الأحمدية. والسبب هو شدة انقباض قلب حضرته تجاه بعض كلماته. إذ زاره حضرته مع أخيه الكبير معزّيًا بابنه، وكانت لديهم عادة في مثل هذه المناسبة أنه كلما جاءهم لتقديم التعزية شخصٌ يرتبطون معه بعلاقة حميمة أخذوا يبكون صارخين ملتصقين به، واتّباعًا لهذه العادة عانق هذا الشخص الأخ الأكبر لحضرته وقال باكيا: لقد ظلمني الله ظلمًا كبيرًا. فلما سمعه حضرته نفر منه لدرجة أنه ما أراد رؤية وجهه. وبعد ذلك أعانه الله تعالى فاستطاع الخروج من تلك الجهالة.

هذه هي نتيجة سوء فهمهم لقضية القدر بحيث يقولون بأن الله تعالى ظلمنا بكذا أو جار علينا بكذا، وهكذا لا يتورعون عن الإساءة لله بأسوأ طريقة ممكنة. الحقيقة أن مسؤولية أفعالهم تقع على الذين رسخوا في قلوبهم فكرة أن الله يفعل كل شيء، وبالتالي إذا أصابتهم مصيبة قالوا إن الله تعالى ظلمنا بها.

ضرورة الإيمان بالقدر

والآن أريد إخباركم عن ضرورة الإيمان بالقدر. لقد أخبرت بأن القدر اسمٌ لظهور الصفات الإلهية، ولا يكتمل إيمان الإنسان بدون

الإيمان به. فالقدر ذريعة لتقوية الإيمان ولتكميله. فلولا مسألة القدر لكان الإيمان ناقصًا.

الأضرار الناجمة عن عدم وجود القدر الإلهي

الضرر الأول: لولا القدر الإلهي لما وجد الإنسان راحةً في الدين ولا في الدنيا. لقد أخبرتكم أن أحد الأقدار هو أن النار تحرق، والماء يروي الغليل، أي أنها تلك الأحكام التي حُدّدت بواسطتها خواصُ الأشياء. وإن العالم يدبّر أموره مستفيدًا بهذه القاعدة. يخرج الفلاح آخذًا الحبوب من بيته ويبذرها في الأرض، وكأنه يضيعها في الظاهر، ولكن لماذا؟ لأنه يأمل أن تنبت كل بذرة منها فتنتج حبوبًا كثيرة. ولكن لماذا يأمل ذلك ويوقن؟ لأنه كلما فعل ذلك أبوه وجده وأبو جدّه ظهرت هذه النتيجة. وقد وضع الله تعالى قانونًا أنه إذا زُرعت حبّة في الأرض أنبتت حبوبًا كثيرة من جنسها. ولكن لولا هذا القانون المحدد، وحصل أنه إذا زرع الفلاح القمحَ -مع حاجته له- نبتَت منه حبوب القمح مرة، وشجرةُ السمر مرة أخرى، ودوالي العنب مرة ثالثة؛ فلا بد أن يترك الفلاح زراعة أي شيء بعد ذلك معتبرًا فعله هذا عبثًا ومضيعة لجهوده.

كذلك يعرف الصائغ أنه إذا وضع الذهب في النار فإنه سيذوب فيصوغ منه الحلي كيفما يشاء. ولكن لو أعطى أحد للصائغ ذهبًا لِصُنع أسورة غير أنه كلما وضعه في النار تحوَّلَ فضةً، أو إذا كانت فضةً

تحولت نحاسًا، لامتنع الصائغ عن هذا العمل حتمًا، وكانت حالته يرثى لها لتلقيه الضرب المبرح على أيدي زبائنه. كذلك لو سخّن الحداد الحديد ليصنع منه مِغْفَرًا، فعند ضربه بالمطرقة أخذ شكل سندان مرة، أو إذا أراد أن يصنع منه مِعولا فتحول سيفًا، لقبضت عليه الشرطة لعدم أخذه رخصةً لصنع الأسلحة. ولو أن الطبيب أعطى المريض دواء للحُمّى فسبّب له سعالا، فمن ذا الذي كان سيذهب إلى الأطباء؟ فبسبب القانون المحدد والخبرة الطويلة يعرف الفلاح البسيط أيضًا أن شراب البنفسجة يفيد في السعال، ولكن لولا هذه القاعدة، ولو شرب الإنسان شراب البنفسج فسبّب له السعال حينًا، والحمى حينًا آخر، والإمساك تارة، والإسهال تارة أخرى، وفقدان شهية الطعام طورًا، والجوع الشديد طورًا آخر، فمن ذا الذي كان سيسقي المريض هذا المشروب بعد ذلك؟ يسقي الناس مرضاهم مشروب البنفسج لأن الله تعالى قد جعل قاعدة محددة بأن هذا المشروب يفيد في نوعٍ معين من السعال.

وإن الفلاح يحمل الحبوب من بيته ويبذرها في الأرض لأنه موقن بأن القمح ينبت مزيدا من القمح، ولو شك في هذا الأمر لما فعل ذلك بل قال: لا أدري ماذا سينبت منه، فلماذا أضيع هذه الحبوب؟ أما الآن فإنه يلقي في الأرض حبوب القمح لعِلمه أن الله تعالى قد جعل قدرًا ثابتًا بأن القمح ينبت قمحًا. كذلك يعرف أنه إذا أكل الإنسان الطعامَ شَبِع،

ولكنه لو شبع بلقمة حينًا، وحينًا آخر لم يشبع ولو أكل طول النهار، فلماذا يأكل؟ ولماذا يضيع المال على الطعام؟ وبالمثل إن النار تنضج الطعام، ولكن لو لم يخبز الرغيف ولو بقي في التنور المشتعل طول النهار، أو لو احترق بمجرد أن وُضع في التنور، أو لو خُبِزَ أحيانًا رغيف الخبز المرقوق بعد تعرضه للحرارة، وانتفخ أحيانًا ليتحول إلى خبز الخمير لما خبز أحدٌ شيئًا. أو لو نضج الطعام بالنار مرة، ولم ينضج مرة أخرى، لما صنع أحد أي طبيخ.

يعرف كل إنسان أن السكر يحلّي الطعام والشراب، ولكنه لو جعل الطعام حلوًا مرة، ومُرًّا مرة أخرى، ومالحًا مرة ثالثة، وحامضًا رديء الطعم مرة رابعة، لما استعمل أحد السُّكّر.

باختصار، إن نظام الكون كله جارٍ على سبب واحد وهو قانون القدر الإلهي، فقد قدّر الله تعالى ووضع قانونًا محددًا بأن الحلوَ سيعطي طعم الحلاوة، وأن الحامض سيعطي طعم الحموضة، وأن النار ستحرق وستنضج، وأن الطعام سيُشبع، وهكذا دواليك. وقد جرّب الناس هذه الأمور فوجدوها صحيحة، ولذلك ينفقون أموالهم وجهودهم لاقتناء هذه الأشياء. فثبت أن جميع أعمال الدنيا وجلّ رقيها منوط بقانون القدر المحدد، ولولاها لبطل نظام الكون كله. فإن حياة الإنسان قائمة بقانون القدر الإلهي لأن الإنسان يحافظ على حياته بالطعام والشراب

والحاجات الأخرى، ولا يبذل جهده لتأمين هذه الأشياء إلا إذا كان على علم بأن جهوده سوف تسفر عن نتائج مفيدة، فلو لم يكن هناك قدر محدد لما بذل الجهد، وبالتالي ما بقي على قيد الحياة.

فكان هذا هو الضرر الناجم عن عدم وجود التقدير العام، والآن أطلعكم على أضرار ناجمة عن عدم وجود التقدير الخاص.

أضرار ناجمة عن عدم وجود القدر الخاص

كما أن قيام الدنيا ورقيها منوط بالقدر العام، كذلك فإن قيام الروحانية ورقيها مرتبط بالقدر الخاص. وكما ثبت أنه لولا القدر العام لبطل الكون، كذلك لولا القدر الخاص لبطلت الروحانية.

الضرر الأول: لا يسع الإنسان الإيمان بالله بدون القدر الخاص، لأنه من أكبر الأدلة على الإيمان بوجود الله تعالى هو وجود هذا العالم، وينبغي أن يكون ثمة صانع لهذا الكون الواسعَ العظيم. سأل فيلسوف أعرابيًا عن دليل وجود الله فقال: إذا رأيتُ بعرة شاة أفهم أنها مرت من هنا، وإذا رأيت بعرة بعير عرفت أنه مر من هنا، وإن رأيتُ أثر قدم الإنسان أدركت أنه مرّ من هنا، ألا أفهم من رؤيتي لهذا العالم الكبير أن هناك إلهًا صانعًا له؟ غير أن هذا البرهان ليس بكامل، لأنه يثبت أنه ينبغي أن يكون هناك إله، ولكن لا يدل على أن الله موجود حقًّا. ولقد سلط حضرته عليه السلام الضوء على هذا الأمر بالتفصيل في كتابه "البراهين الأحمدية".

والسؤال المحتمل الآن: كيف يمكن أن نعرف أن الله موجود فعلا؟

يمكن معرفة ذلك إذا أرى الله تعالى نموذجًا لقدرته، وبرؤيته يمكن الوصول إلى اليقين بأن الله تعالى موجود في الحقيقة. إذا رأى الناس أن عملًا ما يفوق قدرة الإنسان وقد حدث بعد إنباء أحدٍ بوقت كاف قبل حدوثه بصورة خارقة للعادة، فبإمكانهم أن يفهموا أن الله قد أحدثه.

وأنوه هنا إلى أمر آخر وهو: يمكن أن يقال بأن حضرته عليه السلام كتب عن الوحي أنه يثبت وجود الله تعالى، ولكنك تقول بأنه يثبت بالقدر الإلهي.

ينبغي أن نتذكر بخصوص هذا الأمر أن كلا الأمرين صحيح، لأن وجود الله تعالى يثبت من خلال الوحي الذي يتضمن القدر الإلهي، وإلا فإذا كان الوحي يقول: أنا الموجود، فيمكن أن يقول الناس بأنه من أوهام الملهَم ولا يثبت من خلاله وجود الله، فقد يكون مثل هذا الوحي أوهام الملهم.

لقد جاء مرة شخص هاهنا وقال بأنني أسمع صوتًا يقول: أنت المهدي. كان هذا الشخص مقيما في دار الضيافة، وكان المولوي غلام رسول الراجيكي أيضا هناك فدعاه وسأله: إذا سمعت أحدًا ينادي قائلا: أيها المولوي المحترم! أيها المولوي المحترم! فهل ستظنّ أنه يناديك؟ قال: لا. فسأله: وماذا ستفهم من قول أحدٍ إذا سمعته ينادي: أيها الطبيب! أو

أيها الدكتور!؟ قال: أفهم منه أنه ينادي أحد الأطباء أو الدكاترة، أما أنا فلست أكثر من مجرد سامع لصوته. فقال له المولوي الراجيكي: عند سماعك نداءه للطبيب أو الدكتور لا تظنّ أنه يناديك، فكيف تظنّ أنه يعنيك عند سماعك صوتًا يقول: أنت المهدي أو أنت المسيح؟!

كذلك جاء شخص آخر في زمن حضرته عليه السلام وقال: أُسمَّى محمدًا أحيانًا، وموسى أخرى وإبراهيم تارةً، وأحيانًا أزور عرش الله. فسأله حضرته عليه السلام: هل تعطى لك معجزة مماثلة لمعجزة موسى عندما تُسمَّى موسى؟ قال: لا. قال عليه السلام: وهل تُعطى آياتٍ أعطيت لعيسى عندما يقال لك بأنك عيسى؟ قال: لا. قال عليه السلام: وهل توهب لك قوى محمد ﷺ عندما تسمّى محمدًا؟ قال: لا. قال عليه السلام: وعندما تزور عرش الله فهل تعطى لك الآيات الجلالية أيضا؟ قال: لا. قال حضرته عليه السلام: إذا قال شخص لآخر: خُذ، ثم لا يعطيه شيئا عندما يمدّ الثاني يده للأخذ، أفلا يفهم من ذلك أنه إما يُستَهزَأُ به، أو أن هذا ابتلاء له؟! وعليه فبسبب آثامك تتعرض لمثل هذا الاستهزاء، وينبغي أن تتوب.

فبما أن الإلهام قد يكون نتيجة الوهم والوسوسة والمرض أو هو إلقاء الشيطان، لأجل ذلك يمكن أن يشتبه في الإلهام المجرد أن يكون وحيًا شيطانيًا أو نتيجة مرض ما، ولكن إن رافقته القدرة أيضا ثبت أنه من إله قدير وعظيم. فكلا الأمرين صحيح؛ وهما أن الوحي يوصل إلى مرتبة

اليقين في إثبات وجود الله تعالى، وأن إظهار القدر يوصل إلى مرتبة "إن الله موجود"، وأنه لولا القدر لما كان الإيمان بوجود الله تعالى. يمكن أن يقال بالنظر إلى الدنيا أنها وجدتْ تلقائيًا ولكن عندما يرى الإنسان قدرة الله وقوته يدرك وجود الله الصانع لها. يقول حضرته عليه السلام في بيت من الشعر بالأردية معناه:

إن الله تعالى يثبت وجوده من خلال إظهار قدراته التي تمثل تجلّيًا لوجه هذا الإله الذي ليس له وجود ظاهري محسوس.

لقد أخبر عليه السلام بأن الله تعالى يجلي وجهه من خلال إظهار قدرته ولا تثبت ألوهيته ما لم يجلي قدرته.

يقول مَن لا يرى قدرة الله تعالى: مَن خلق اللهَ حتى نؤمن بوجوده؟ ولكن يثبت لهم وجود الله عندما يرون قدرته.

والضرر الثاني: لولا القدر لما كان الإيمان بالله تعالى. وإن أحرز أحد الإيمان بالله بطريق أو بآخر فلا يتولد معه الحب والإخلاص بدون القدر. لنأخذ الملك مثلا؛ لا يرضى أحد بكتابة رسالة له لأنه ليست له علاقة ذاتية مع الملك، أما الذين نكون على علاقة ذاتية معهم فيخطر ببالنا مرة بعد أخرى مراسلتهم. كذلك إذا كان الأمر عامًّا فله طعم ما، أما إذا كان يخصنا فله لذة أخرى. كذلك لو صدر من الملك إعلان عام فلا يجد فيه المرء متعة كبيرة، ولكن لو تلقى أحد من الملك

رسالة موجهة إليه خاصة لاعتبرها فخرًا له. فلا بد من العلاقة الذاتية مع الله تعالى لنشوء المحبة والإخلاص معه، ويمكن أن تقوم مثل هذه العلاقة بالقدر الإلهي.

والضرر الثالث: لولا القدر لما نال الناس كلهم النجاة، وذلك لأن كثيرًا من الناس يرتكبون السيئات في بداية أمرهم ويتركونها عندما يفهمون خطورتها. لولا القدر -ولو كان الأمر منوطًا بالتدبير فقط- لما نال الإنسان جزاء إلا وفق ما اقترفه من أعمال، وذلك لأنه كان سيأخذ جزاء أعماله فحسب، ولم يكن الله تعالى ليعطيه شيئا زائدًا. فلو مارس أحدٌ السيئات طيلة ٨٠ عامًا من حياته أما في العام الـ ٨١ شرع بالمواظبة على الصلوات والأعمال الصالحة، لما أثر تدبيره هذا على آثامه بل أخذه عبء أعماله السيئة إلى جهنم. ولكن قدر الله تعالى التالي يعمل عمله هنا، وهو أنه لو تاب العبد عن ذنوبه فإن الله تعالى يمحوها، ويقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٥). ولكن لولا هذا القدر لصعبت نجاة الناس. ولولا القدر لما كانت هناك قضية التوبة، ولولا التوبة لما غفرت ذنوب الإنسان وبالتالي استحالت نجاته؛ ولكن الله تعالى قد أصدر قدرًا بأنه إذا تاب الإنسان فستُمحى ذنوبه. ولأجل ذلك قال النبي الكريم ﷺ: إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ، وإن حسنته هذه التي يقوم بها في أواخر

حياته تقضي على سيئات حياته كلها. (راجع: الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء في فضل التوبة والاستغفار..).

وهكذا يُنقذ الإنسان من الهلاك بسبب مسألة القدر. لقد رأيت شخصًا مصرًّا على ذنوبه، فقلت له أن يرتدع عنها فقال: لقد ارتكبت ذنوبًا كثيرة جدًّا بحيث أدخل جراءها جهنم مباشرة، فما الفائدة من ترك الذنوب الآن؟ قلت له: هذا ليس صحيحًا، لأن الله تعالى يغفر ذنوب العبد إذا تاب عنها. كان رجلا متفهمًا ففهم الأمر وأقلع عن ذنوبه. فلولا القدر لما كانت هناك التوبة، ولولا التوبة -أي لو لم يتب الله تعالى على عباده و لم يمحُ سيئاتهم- لهلك الإنسان.

أهمية القدر الخاص وضرورته

والآن أخبركم عن أمر آخر وهو: ما هي أهمية القدر الخاص وضرورته؟ لا شك أن الله تعالى جعل لكل شيء قدرًا معيّنًا، وعلى العبد أن يعمل وفق هذا القدر، إلا أنه يمكن أن لا يفيده القدر العام أحيانًا. مثلا، إذا احتاج أحد إلى الماء وهو في الغابة وليس ثمة بئر ولا نبع. فما هو القدر للحصول على الماء؟ هو أن يحفر بئرًا لإخراج الماء. ولكنه لو شرع في حفر البئر فسيموت قبل أن يصل إلى الماء. لذلك فقد جعل الله تعالى لمثل هذه الأوضاع قدرًا خاصًّا ينجي الإنسان من الهلاك بواسطته،

ولولاه لما كان أي شك في هلاكه. والقدر الخاص أن يدعو الله تعالى، وهو يهيئ له سبيلا خاصًا للحصول على الماء.

وأقدِّم واقعة أحد الصحابة مثالا على هذا الأمر؛ لقد أسره جنود الروم وكانوا فرحين بأسره. وأراد قيصر أن يعاقبه عقابًا شديدًا، فأشار عليه أحد أن يُطعمه لحم الخنـــزير لأنه حرام في دينه. فطبخوا لحم الخنـــزير وقدموه له فرفض أكله. قيل له مرة بعد أخرى أن يأكله إلا أنه لم يأكله، وفي النهاية أصبحت حالته يرثى لها من شدة الجوع. لم تكن بيده حيلة لإنقاذ نفسه من الهلاك، وما كان له أن يستفيد شيئا بالقدر العام لأنه كان أسيرًا عند العدو، فلم يكن من مخرج إلا أن يفعل الله تعالى شيئًا. فلو كان قرار الله تعالى أن لا يتم أي شيء إلا بالأسباب مهما كانت الظروف ما كانت هناك صورة لنجاته، ولكن بما أن الله تعالى قد أجرى سلسلة القدر الخاص أيضا لذلك توفّرت الظروف لنجاته. فما مضت أربعة أو خمسة أيام على تجويعه حتى ابتلى الله تعالى قيصرَ الروم بالصداع الشديد، فاستخدموا كل الأدوية المتاحة دونما جدوى، فقال له أحد: ربما كان هذا الوجع عقابًا على إيذاء الأسير. فقال قيصر: يبدو أنه هو السبب، فدعا الصحابي ولاطفه، وكتب إلى سيدنا عمر ﷺ عن وجع رأسه، فأرسل عمر ﷺ إليه قبعته القديمة وقال له: البس هذه القبعة فستُبرأ من أوجاع الرأس، وكتب أيضا: أحد

إخوتنا أسير عندك فأطلق سراحَه بكل عزة واحترام، ففعل، وعند لبسه القبعة شُفي من الأوجاع.

هذا كان قدر الله الذي بواسطته نجّى الله ذلك الصحابي. لم يكن حلٌّ لمشكلة هذا الصحابي من خلال القدر العام، فأمسك الله تعالى بعنق قيصر وجعله يفك أسر الصحابي.

ثم هناك واقعة لموسى عليه السلام. لقد أمره الله تعالى أن يتوجه إلى بلد معين، فلما سار مع أصحابه مرّوا من وادٍ لا ماء فيه ولا كلأ، ولم يسعهم حفر البئر لأن الأرض كانت صخرية، فماذا عسى أن يفعلوا في هذه الأوضاع؟ لم يكن بوسعهم الرجوع ولا التقدّم، بل لم يكن بيدهم شيء إلا أن يرحمهم الله. فكان الحلّ الوحيد لمشكلتهم أن يجري الله تعالى قدرًا خاصًّا من عنده. فتوجه موسى عليه السلام إلى الله تعالى قائلا: اللهم قد أشرفنا على الموت جراء العطش الشديد فهيِّئ لنا من عندك ماءً. فقال له الله تعالى أن يتوجه إلى مكان معين ويضرب هناك بعصاه. فلما ضرب هنالك بعصاه انفجرت عين وتوفر لهم الماء. كانت تلك العين موجودة هناك منذ الأزل. ولكن لمن؟ لموسى الذي سيصل إلى هذا المكان ولن يجد ماء، وسيُوَفَّر له عندئذ الماء منها.

فحيثما لا تنفع الأسباب أو تعرض المرء للوضع المذكور فلا ذريعة للنجاة من الهلاك إلا القدر الخاص، فلولا القدر الخاص لحصلت الأضرار التالية:

٢. لم يكن بالمستطاع الحصول على الإيمان بالله.

٣. ما كانت هناك إمكانية لتوطيد علاقة الإنسان مع الله تعالى.

٤. ما كان للإنسان التخلص من ذنوبه بالتوبة.

٥. ولم يكن بوسع الإنسان النجاة من الهلاك في الظروف التي يصعب فيها توفر الأسباب.

ضرر آخر لعدم وجود القدر

لولا القدر لظل العالم كله غارقًا في الشرك، وذلك لأن الأنبياء -الذين يأتون بالشريعة الجديدة ويقيمون جماعاتهم- كانوا سيأتون في هذه الحالة بدون الأسباب الظاهرية. مثلا لم يكن النبي ﷺ يملك أسبابًا عندما أبطل الأوثان في مكة. كان أهل مكة -الذين يقتاتون على عبادة الأوثان- يريدون القضاء عليه ﷺ، بينما لم يكن النبي ﷺ يملك جيشًا ولا قوة لردّهم. فلو كان النجاح منوطًا بالأسباب فقط لنجح الكفار في مرامهم ولغلبوا النبي ﷺ وقضوا عليه، وكانت النتيجة بعد وفاته أن تظل الدنيا غارقة في ظلمات الشرك وغياهب الضلال.

كذلك لم يكن عيسى وموسى عليهما السلام في هذه الحالة يملكان أية أسباب. فلو كانت الأمور تتوقف على التدبير أي القدر العام فحسب لقُتل كل نبي مبعوث إلى هذه الدنيا، وبالتالي ما كانت لسلسلة الأنبياء أن تستمرّ. ولما كان أعداء الأنبياء يملكون القوة وأسبابَ الدنيا،

لذلك يعين الله تعالى رسله بإنزال القدر الخاص وهكذا يحققون النجاح، وإلا فلم يكن بوسعهم البقاء على قيد الحياة و لم يتمكنوا من القضاء على الشرك.

ورُبّ قائلٍ يقول: من يبعث نبيًّا؟ الإنسان أم الله؟ فلو كان الله هو من يبعث الأنبياء لما بعث شخصًا كمحمد (ﷺ) الذي لا حول له ولا قوة من ناحية تملكه أسباب الدنيا، بل كان ينبغي أن يجعل ملكًا عظيمًا كقيصر نبيًا. فبدلا من أن يختار أشخاصًا ضعافًا كان ينبغي أن يجعل الملوك الكبار أنبياء له، وهكذا لم يكن بحاجة إلى أن يجري قدرًا خاصًّا لهم. ولكن لو حصل ذلك لكان الله محتاجًا إلى العباد وليس العكس، لأنهم كانوا سيقولون: لقد جعلنا الناس يؤمنون بوجود الله بممارسة قوتنا وهيبتنا وإلا فلم يكن لأحد أن يؤمن به. وهكذا فكأنه كانت لهم منة يسدونها إلى الله. ولكن الله تعالى يختار للنبوة دائمًا أولئك الذين يرون فضل الله وإحسانه نازلا عليهم كل حين وآن ويكونون له من الشاكرين.

قد يخطر ببال أحد أن نبي الله داود وسليمان عليهما السلام كانا ملكين، وليعلم أنهما لم يأتيا لإنشاء جماعةٍ جديدة، فيمكن أن يكون أمثال هؤلاء الأنبياء من الأمراء والملوك، ولكن النبي الذي يأتي لإقامة عالم جديد ويُبعَث به القومُ الموتى إلى الحياة لا يكون إلا من عامة الناس الذين لا حول لهم ولا قوة من الناحية المادية.

الإيمان بالقدر الإلهي يحقق الدرجات السبع للروحانية

والآن أخبركم عن الفوائد المنوطة بالإيمان بالقدر.

الدرجة الأولى: الفائدة الأولى للقدر العام هي تحقيق الرقي الدنيوي. لولا الإيمان بالقدر لما أُنجز من عمل. إن أعمال الدنيا كلها جارية بسبب إيمان الإنسان ببعض قوانين القدر الإلهي. مثلا: النار تحرق، والماء يطفئها، ولو لم يكن الإنسان موقنًا بخواص الأشياء لامتنع عن بذل مجهوده في أي شيء، وهكذا بطل نظام العالم كله.

وفائدته في الروحانية هي تحقيق الاستقامة واكتساب الإيمان. فكما أن الفلاح يبذر بذور القمح ليقينه بأن الناتج سيكون قمحًا، كذلك عندما يرى الناس نتائج طيبة لاتِّباع أحكام الشريعة فإنهم يتشجعون للعمل بها ويتحمسون لها، وتنشأ في قلوبهم رغبة لاكتساب الإيمان. لو لم يكن الأمر كذلك لردّ الناس أنبياء الله عند بعثتهم وقالوا: لماذا نؤمن بهم ما دام الإيمان بهم لا ينفع شيئا؟ لماذا آمن الناس بمحمد ﷺ؟ لأنهم رأوا بأم أعينهم أن العمل بتعليمه يحدث في الإنسان انقلابا روحانيا وأخلاقيًا، ويحظى المؤمنون به بتأييد الله ونصرته، فتحمّس هؤلاء أيضا للانتفاع بهذا القدر وجذب أفضال الله تعالى لأنفسهم ولأهلهم.

الدرجة الثانية: يُقام من خلال القدر العام الشرعي نموذجٌ ومثالٌ للناس فيركزون على الاستفادة منه، وبعد ذلك يجري لهم قدر خاص

ويحققون بواسطته ازدهارًا أكثر فيدخلون في الدرجة الثانية، أي أن إيمانهم بالقدر يوصلهم إلى درجة الصبر والرضا. الحقيقة أن من سنة الله تعالى أنه يبتلي عباده بعد إيمانهم، فيقول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (العنكبوت:٣-٤).

أي هل يظن الناس أنهم لن يُفتَنوا بعد إيمانهم؟ كلا بل من الضروري أن يُعرّضوا للفتنة من أجل التفريق بين الصادق والكاذب. فكلما آمن منهم أحدٌ قُدّر له من الله ابتلاءات؛ بعضها يتعرض له الإنسان بسبب تقصيراته وأخطائه وبعضها يأتي من الله. فمثلا يولد لأحد صبي ثم يموت، فما كانت ولادته لديه إلا ليتعرض للابتلاء؛ وكذلك للغرض نفسه يتهدّم بيته أو يلحق به عدوّه ضررًا. فلو كان التدبير كلَّ شيء لما كان من سبب يجعل الإنسان متمسّكًا بأهداب الصبر ولا يقوم بأي تدبير مقابل عدوه. فلا يظل ثابتًا على مقام الصبر إلا إذا علم أنه معرّض للاختبار والابتلاء. فلو كان التدبير هو كل شيء لما صبر ولأبدى حماسًا وبذل الجهد أكثر في مثل هذه المناسبات. كان بعض أفراد الجماعة يستأذنون حضرته عليه السلام أحيانًا لرفع القضايا ضد المعارضين بسبب شرورهم، إلا أن حضرته عليه السلام كان يقول لهم دائمًا: ينبغي أن نصبر، مع أنه كان مسموحًا له برفع القضايا درءًا لشرور الأعداء. والسبب في

ذلك أن المؤمنين يتعرضون أحيانًا لابتلاءٍ من الله تعالى يتطلب أن يتحلوا بأهداب الصبر فيه. فإن مقام الصبر والرضى -الذي هو درجة من درجات الروحانية- ينشأ من الإيمان بالقدر الإلهي لأنه بسببه يرى الإنسان أن هذا الابتلاء من الله فيصبر، وبالتالي يقول عن كل ما يتعرض له بأنه من الله تعالى وهو خير له. لا شك أنه يلجأ إلى التدبير أيضا وفق أمر الله تعالى في جزء من هذه الابتلاءات إلا أنه يتمسك بأهداب الصبر والرضاء فقط في جزء آخر منها، ومن يبلغ هذا المقام يقول حقًّا عندما تصيبه أية مصيبة: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٧).

باختصار، ينال الإنسان هذه الدرجات من خلال إيمانه بالقدر الإلهي، إذ لولا القدر لعُدّ صبر الإنسان جبنًا وضعف همة، واعتُبِر رضاه وقاحةً، ولكنه عندما يصبر مؤمنا بالقدر على بعض الابتلاءات -التي يعتبرها اختبارًا له- يصبح صبره محمودًا. ويبدي رضاه تجاه فعل الله تعالى المتمثل في بعض الابتلاءات -التي يراها خالصة من مقتضيات الإيمان- فإن رضاه يصير جديرًا بالثناء عليه. والصبر الأمثل هو أن يتحمل الإنسان أمرًا يقدر على ردّه، أما لو لم يكن يتحلى بالقدرة على ردّه فإن صبره عليه ليس بالصبر المثالي والسامي. والرضا وهو أن يقبل الإنسان بعض الابتلاءات بصدر منشرح إيمانًا منه أن ما يتعرض له هو ابتلاء من الله تعالى، ولكن لو لم يؤمن بكونه ابتلاء من الله لعدّ ذلك قلة الغيرة ودناءة.

ويمكن التفريق بين الحالتين المذكورتين بالعلم أن الواصل إلى مقام الرضى يكون مجتهدًا ونشيطًا وذا همّة وعزيمة في أعماله الأخرى وتكون عزيمته عالية جدًّا مقارنة مع الآخرين.

تذكرت عند سردي لموضوع الرضى أمرًا حصل قبيل أيام وفاة حضرته عليه السلام. كان "ملك مبارك علي" -التاجر من لاهور- يأتي مساء كل يوم إلى مقر حضرته عليه السلام وكان يرافق حضرتَه في عربته عند خروجه عليه السلام للنـــزهة. كان حضرته قد جلب لي حصانًا وكنت أرافقه في النـــزهة ممتطيا صهوة هذا الحصان الذي كنت أقوده إلى جانب عربة حضرته وأتحدث معه أيضا خلال النـــزهة. ولكن شعرت بثقل عجيب على طبعي في الليلة التي تفاقم فيها مرض حضرته وتوفي في اليوم التالي، فلم أركب الحصان، وقال لي ملك مبارك علي أن أركب عربته، فجلست معه، إلا أنني شعرت وكأن قلبي هوى في هوة سحيقة من الحزن، وجرى على لساني الشطر التالي من الشعر بالأردية:

راضی ہیں ہم اسی میں جس میں تری رضا ہو

أي: إننا راضون بما فيه رضاك.

ظل ملك مبارك علي يقصّ عليّ أحاديثه، إلا أنني كنت أرد على بعضها مختصرًا وأغرق في أفكاري تلك. لقد تفاقم الليلة مرض حضرته عليه السلام فجأة وتوفي صباحًا. وكان ذلك قدرًا خاصّا أعدّني لتحمل تلك الصدمة الهائلة قبل حدوثها.

كذلك ورد عن الصوفيين أنهم لما عرفوا عند تعرضهم للابتلاء أنه من الله وجاء لاختبار إيمانهم، شعروا بلذة في هذه الحالة الشديدة ورفضوا عرض الناس ومحاولتهم لإزالة هذا الإيذاء عنهم.

لماذا تأتي الابتلاءات؟

ينبغي أن نتذكر أولا أنها تأتي عمومًا لتقوية إيمان الإنسان، ولكن هذا لا يعني أن الله تعالى لا يعرف حالة إيمان الإنسان، بل لأن الإنسان نفسه لا يعرف حالة إيمانه. يُروى أن ابنة إحدى العجائز مرضت مرضًا شديدًا، فأخذت تدعو يوميًا أن تمرض هي بدلا من ابنتها وتموت مكانها. وفي إحدى الليالي علق رأس البقرة في وعاء ضيق ولم تستطع إخراجه منه، فجفلت وأخذت تجري هنا وهناك. استيقظت العجوز ولما رأت أمامها حيوانًا عجيب الشكل ظنّت أنه ملك الموت وجاء لقبض روحها. كان اسمها "مهتي" فأخذت بشكل عفوي تصرخ قائلة: يا ملك الموت! لست "مهتي" إنما أنا عجوز فقيرة، ثم أشارت إلى ابنتها قائلة: هذه "مهتي" مضطجعة، فاقبض روحها.

كانت هذه المرأة تظن أنها تحب ابنتها ولكن عندما ظنت أن قابض روحها قد أتى، انكشف أنها لم تكن تحبها لدرجة أنْ تضحي بحياتها من أجل ابنتها.

ليست هذه إلا حكاية من نسج الخيال، ولكن ما نراه بكثرة هو أن الإنسان في كثير من الأحيان لا يدرك حقيقة أفكاره بشكل كامل، ولا يعرف إلا عند الابتلاء مدى صدق ادعائه بحب أحد وكرهه.

فيُلقى الإنسان في الابتلاء ليعرف الناس عن كيفية إيمانه، وإلا فأنى للناس أن يعرفوا أن إيمان فلان قوي أم لا. ولأجل ذلك قال النبي ﷺ: أمثل الناس أكثرهم بلاء، والأنبياء أشد بلاءً من الناس كلهم. (راجع: الترمذي، أبواب الزهد، باب في الصبر على البلاء).

وقال حضرته عليه السلام في بيت شعر بالفارسية معناه:

أسيرُ في كربلاء كل حين وآن حاملا في جيبِ صدري مئة حسين

يعترض الناس بأن حضرته عليه السلام أساء إلى الإمام الحسين في هذا البيت، ولكنهم جهلة ولا يدرون أن حضرته يذكر الابتلاءات هنا فيقول بأن الإمام الحسين قد استشهد مرة ولكن الأعداء بالمرصاد لقتلي، ويؤذونني لدرجة أنّي أرى مشهد كربلاء ماثلا أمام عيني كل حين وآن.

إن الموت على الصليب مرة واحدة ليس شيئًا كبيرًا مقارنة مع وقوع الإنسان في الابتلاءات الشديدة في كل حين وآن. يقول المسيحيون بأن يسوع المسيح قد علّق على الصليب ومات عليه فآمِنوا بأنه ابن الله. ونحن نقول لهم: إذًا ماذا نسمّي المصلوبين كل حين وآن؟ هذه هي حالة جميع الأنبياء التي يراها الناس فيستيقنون أن إيمان الأنبياء راسخ وقوي جدًّا. يقال: الاستقامة فوق الكرامة، وأعظم الكرامات أن يعترف العدو أيضا بالفضيلة ولا يسعه إنكارها. انظروا كم كانت اعتراضات كبيرة أثارها الأعداء ضد النبي الكريم ﷺ ولكنهم اضطروا للكتابة أن محمدًا (ﷺ) قد واصل مهمته

باستقامة وثبات بحيث لا يقوم بمثله إلا من كان موقنا يقينا كاملا بصدقه، ولا يمكن لمثله أن يكون كاذبًا. فمن استخدم العقل من المؤلفين الأوروبيين، واطلع على أحداث سيرة النبي ﷺ اعترف بأنه ﷺ قد واصل مهمته باستقامة متناهية لا يسع الكاذب القيام بها. فمن غايات ابتلاء الأنبياء أن يطلع عليه الأعداء، ويضطروا للاعتراف بفضلهم عليهم السلام.

فإنما تأتي الابتلاءات لرقي الإيمان وتقويته، وتتكرر ليتم التمرن عليها جيدًا. انظروا إلى الحداد فإنه عندما يضرب الحديد بمطرقته يتحول إلى شيء يريد صنعه، أما من لا يجيد الضرب بالمطرقة فسيضرب بها في مكان وتقع المطرقة في مكان آخر. رأيت مرة أثناء طفولتي بيتًا قيد البناء، وظننت برؤية العمل فيه أن حفر الخشب بالإزميل سهل جدًّا، فضربت بالإزميل على الخشب إلا أنني جرحت يدي. فلا يسع الإنسان إنجاز عمل لم يمارسه سابقا. يضطر الجنود للجري إلى أميال كثيرة، ليس بهدف إيذاء أنفسهم بل للتمرس والتقوية، ولكي يتمكنوا من الجري عند لزوم الأمر. فإن الله تعالى يلقي الإنسان في الابتلاء ليجعله يتمرّن على ترقية أخلاقه وتقويتها. فمثلا إذا شُتِم أحد فإن الصبر عليه وعدم الرد عليه بالشتم ميزة، ولكن كيف تنشأ هذه الميزة؟ إنما تنشأ من أن أحدًا يتلقى السباب والشتائم ويتعلم الصبر عليها وإلا فلا يمكن له أن يجد مناسبة لإظهار هذه الصفة، بل بدون ذلك لن يستطيع الالتزام بهذا

السلوك ولا إظهار هذه الصفة بشكل مناسب. فلا بد من الابتلاء لترسيخ الأخلاق وتمتينها ولا بد لإكمال الإيمان من التحلي بالصبر والرضاء عند الابتلاء.

ورب قائل يقول: لا بد أن الشاتم في الحالة المذكورة يُكره على كيل الشتائم، فلا يشتم إلا مكرهًا. إن هذا ليس صحيحا، لأنه لا يكره على الشتم لا صالح ولا طالح، بل يحدث أن تخلق ظروف لاجتماع الرجل الصالح برجل قاس جارح فيعامل الصالحَ كما يعامل غيره، ولا يداخل الأمر أي نوع من الجبر والإكراه.

الدرجة الثالثة: المرتبة الثالثة للإيمان بالقدر عظيمة جدًّا وهي التوكل. ومعنى التوكل هو تسليم نفسه لغيره. والتوكل نوعان؛ أحدهما ليس بحاجة إلى إظهار القدر الخاص له، إذ إن الإنسان يستخدم الأسباب ويتكل على الله موقنًا بأنه لن يضيع سعيه ويحفظه من الحوادث غير العادية. في مثل هذا النوع من التوكل يأمل الإنسان أن ينقذه الله تعالى بأفعاله الخاصة من الحوادث غير العادية، ويُتِمّ عمل العبد بحيث يأتي بنتائج طيبة لأعماله، إلا أن العبد في هذه الحالة لا يتخلى عن الأسباب.

والنوع الثاني للتوكل هو أن يترك الإنسان الأسباب أيضا، ولكن لا يخص هذا التوكل أعمالَ الشريعة -فلا يترك الإنسان الصلاة والصوم

والحج والزكاة ويسلم أمرها إلى الله قائلا: إذا أمرني الله فسأصلي، وأصوم- بل لا يكون مثل هذا التوكل إلا في الأعمال الجسدية. ومن قال مثل هذا الكلام عن الأحكام الشرعية فقد كذب، بل القائلون به إباحيون، وقد اخترعوا حيلا كثيرة للتنصل من أحكام الشريعة. فمثلا يقولون: إن اتباع أحكام الشريعة مثل ركوب قارب للعبور، فأي عقل يجيز أن يجلس الإنسان دائمًا في القارب، بل لماذا يظل جالسًا فيه عند بلوغه غايته أي عند وصاله بالله. ولكنه ليس بمثال صحيح إذ ليس هناك درجة واحدة للوصال مع الله بحيث ينبغي أن ينـــزل الإنسان من القارب عند بلوغه إياها. إن ذات الله تعالى لا حدود لها وهناك مدارج لا تحصى للوصال به. بل مثاله الصحيح هو أنه لو أراد أحد زيارة ألوف من المدن العامرة على ضفاف النهر، فسيُعدّ أحمق إن نزل من السفينة عند حلوله في المدينة الأولى منها، لأنه لن يسعه بذلك التقدم نحو الأمام وتخطّي المراحل المتقدمة.

باختصار، التوكل يعني تفويض المرء أمره لله تعالى كلية ليُجري له قدره الخاص كما يشاء، ولكنه يتعلق بأمور الدنيا ولا علاقة لهذا التوكل بأحكام الشريعة؛ فمن قال إنه سلّم صلاته إلى الله فلا حاجة له لأدائها الآن، فلا يبقى مسلمًا بل يصبح كافرًا، لأن الله تعالى أعطى أوامر واضحة بخصوص الصلاة، فمن سلّم أمر الصلاة إلى الله تعالى فإنه تارك الصلاة،

أفلم يكفِهِ الأمر الإلهي الذي بَلَغَه عن طريق محمد رسول الله ﷺ حتى ينتظر الآن أحكامًا أخرى بخصوصها. فلا يكون التوكل إلا في الأمور المباحة التي لم ينـــزل فيها حكم خاص بها، فليست هي إلا أموراً دنيوية ومادية. وعندما يسلمها العبد إلى الله تعالى فكأنه يقول: اللهم أنجز لي أعمالي الدنيوية هذه حتى أتمكن من عبادتك وإنجاز واجباتي الدينية، وأجاهد في سبيلك. فلا هدف من هذا التوكل في حقيقة الأمر إلا القيام بعبادة الله. فلولا القدر الإلهي لما نال الإنسان هذا المقام، وذلك لأنه لو لم يكن الله فاعلًا أمرًا لما كان هناك معنى لتسليم الأمور إليه. ولا يسع نيل هذا المقام من لا يؤمن بالقدر، لأنه إذا كان لا يؤمن بأن الله تعالى يمكن أن يتدخل في أمور الإنسان فلن يسلم إليه أموره. فلا بد من الإيمان بالقدر لإحراز درجة التوكل. وعندما يبلغ الإنسان هذه الدرجة فإنه يجد في عبادة الله وفي خدمة الدين متعة ولذّة بحيث يقلل من أعماله الدنيوية ويسلّمها إلى الله تعالى راجيا منه أن ينجزها له ويفرّغه لخدمة الدين.

هناك درجة أعلى من درجة التوكل وهي التي يترك فيها الإنسان نهائيًا السعي لتأمين لقمة العيش، فيزهد في الدنيا وينقطع عنها انقطاعًا تامًّا وينذر جلّ أوقاته لوجه الله.

وهناك درجة أعلى منها أيضا وهي التي يترك فيها الإنسان تحقيق الحوائج الضرورية لنفسه. لا يعني مثلا أنه يموت جوعًا، بل يعني ذلك

أنه لا يقوم بأمر إلا بإذن الله تعالى. يقول سيد عبد القادر الجيلاني رحمه الله: تساورني أحيانًا حالةٌ لا آكل فيها طعامًا حتى يقول الله لي: أنشدك باسمي أن تأكل؛ ولا أشرب شيئا حتى يقول الله تعالى: أنشدك باسمي أن تشرب؛ ولا ألبس لباسا حتى يقول الله لي: يا عبد القادر، أنشدك باسمي أن تلبسه.

وكان يعتاد على ارتداء لباس ثمنه ألف دينار، وكان يقول عند اعتراض الناس عليه: لا يعلم هؤلاء الجهلة حقيقة الأمر، إذا كان الله تعالى يأمرني بارتداء مثل هذا اللباس فماذا عساي أن أفعل؟

إن الله تعالى يتكفل مثل هؤلاء الناس وتسمى هذه الدرجة درجة الفناء. أصبح بعض الجهلة يعرفون من خلال سماعهم من بعض الصلحاء أن هذه هي درجة من درجات السلوك، إلا أنهم لا يعرفون حقيقتها.

ومثل الحائزين على هذه الدرجة كمثل الذي يشرب خمرًا وينتشي ويغفل عما يدور حوله، وهكذا من يبلغ هذه الدرجة ينتشي بخمرة حب الله تعالى لدرجة أنه يغفل عن الدنيا كليًّا، وعند ذلك يتكفل الله تعالى جميع أعمالهم.

يقول بعض الجهلة إن أولياء الله في حالة الانتشاء هذه يقولون ما يشاؤون وتخرج من أفواههم أمور تخالف الشريعة. وعليه، فيقول البعض بناء على هذا الفهم الخاطئ أن السيد مرزا أيضا انخدع بعد بلوغه هذا

المقام، فغدا يدعي بدعاوى مخالفةٍ للشريعة، لذلك لا تُقبل دعاواه تلك، ولكنهم لا يدرون أن ما يسقي الله تعالى من خمر، فهي وإنْ كانت تُغفِل العبد عن الدنيا وما فيها، إلا أنها لا تبطل العقل ولا تُغفِل عن الدين، بل بشربها تُحدُّ عين الدين أكثر وتزداد بها التقوى والطهارة. المشكلة أن الناس يقيسون خمرة حب الله تعالى على خمرٍ تُصنع بتخمير الشعير أو السكر الخام. في حين أن المراد من خمر الله تعالى هي كأس حبه تعالى يسقيها للصلحاء من عباده، ومن شأنها أن تمحو من قلب الإنسان خيال الدنيا وترسخ في قلبه نقوش جلال الله تعالى من ناحية أخرى.

الدرجة الرابعة: وبعد هذا يسمو بالإنسان إيمانه بالقدر فيصل إلى درجة العبد. ومثل الواصل إلى هذه الدرجة كمدمن خمر يتجرّع زجاجة تلو أخرى دون أن ينتشي بها. فإن البالغ هذه الدرجة يكثر من شرب خمر حب الله تعالى لدرجة أنه يتعود عليها، وبالتالي يترقى عمّا كان عليه في الدرجة السابقة، أي يترقى الآن من درجة الفناء التي كان عليها سابقًا، فتزول عنه حالة النشوة وترهف حواسه فيرى نفسه قائمًا في مقام العبودية؛ أي أنه يبدأ برؤية عظمة الله تعالى من وجهة نظر أخرى، ويقتصر انتباهه على كونه عبدًا لله تعالى، فيقول لنفسه: لست إلا عبدًا لله، وما أنا إلا خادمه، فلا يحق لي أن ألقي نفسي على مولاي، وبعد هذا التفكير يرجع إلى التدبير، أي إلى القدر العام مرة أخرى. وهكذا فإن هذه

المرحلة الجديدة للسلسلة الروحانية تبدأ بالتقدير العام نفسه كما بدأت به المرحلة الأولى. وفي هذه الدرجة يبدأ العبد بكل أدب استخدام أسباب خلقها الله تعالى لأنه يراها من طرف الله تعالى، فيلجأ إلى استخدام الأسباب أيما استخدام في كل حاجة وعند كل مناسبة.

يعترض بعض الجهلة اليوم فيقولون: كان المرزا المحترم يقوم بتدابير كثيرة، ولا يدرون أنه يصبح واجبًا أحيانًا على مَن يصل مقام العبودية أو يترقى منه ليستخدم التدبير، ويأثم إذا لم يفعل ذلك. فإن الواصل إلى مقام العبودية يقوم بجميع الأعمال ويستخدم الأسباب المحددة لكل عمل، ويمر أحيانًا بحالة لا يدعو فيها لنفسه شيئا غير الأدعية التي فُرض عليه أن يدعو بها، لأنه يرى أن الدعاء يعني طلب القدر الخاص، ولا يحق للخادم أن يدعو مولاه على هذا النحو. كان إبراهيم يتمتع بهذه الحالة نفسها لما أوشك أعداؤه على إلقائه في النار. فقد جاءه جبريل آنذاك وسأله قائلا: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، أما إلى الله فإنه يعلم ويرى. فقال جبريل: إذن اسأل الله. قال: ماذا عساي أن أقول له؟ فإنه يعلم ويرى.

فعند بلوغ الإنسان هذه الدرجة يتمتع بحالة يتفانى فيها في العبودية، فلا يسعه رفع بصره إلى الله نظرًا إلى هيبته وجلاله تعالى، لأن بصره في تلك الحالة يكون مصروفًا عن كل شيء، ولا ينظر إلا إلى عبوديته.

الدرجة الخامسة: ثم يترقى العبد أكثر، وعند انتهائه من مطالعة عبوديته ولدى شعوره بضعف نفسه من خلال خضوعه المستمر للقدر العام يقول: لأي غرض أجرى الله القدر الخاص؟ إنما أجراه لمثلي، الذي هو عبده ولديه نقاط ضعف كثيرة، فعدم استخدام القدر الخاص أيضا نكران النعمة، وهكذا فإنه يشرع بالانتفاع بالقدر الخاص، أي بالدعاء، وهذا هو مقام الدعاء، فيدعو الله تعالى عند بلوغه هذا المقام. وعندما يواجه صعوبة ما يقول بأن الله تعالى أصدر قدرًا خاصًّا لأستخدمه في مواجهة مثل هذه الصعاب. ومثاله كمثال شخص جالس تحت شجرة مثمرة وبجانبه قصبة طويلة، وكلما جاع أسقط بها ثمار الشجرة. صحيح أنه يبذل جهده لنيل الثمار، ولكنه وجد لتحقيق ذلك قصبةً دون جهدٍ منه. إن الإنسان البالغ هذه الدرجة يكون ساعيًا لإصلاح العالم وإرجاع الناس إلى عبودية الله. ولكنه يعرف إلى جانب ذلك أن كونه عبدًا لا يعني تمكّنه من إنجاز هذا العمل، فلا بد أن يراسل مولاه. فكلما شعر بحاجة راسل مولاه، أي دعا الله تعالى أن يعينه في إنجاز مهمة كذا، فيأتيه النصر والعون منه، وعندئذ يصبح التدبير في نظره حقيرًا. فإنه يعتبر نفسه عبدًا لمولاه تعالى، إلا أنه يدرك تمامًا أنه لا يسعه فعل شيء بدون عون مولاه.

وبعد ذلك يتقدم الإنسان نحو الأمام، وكلما تقدّم أحرز درجات مختلفة في مقام العبودية، لأنه ليست هناك درجة أخرى أعلى منها، بل

إن أعلى الدرجات أيضا في حقيقة الأمر فرع من فروع العبودية وليست منفصلة عنها، ولأجل ذلك يسمي الله تعالى النبي ﷺ أيضا بالعبد، وأجمع العارفون بهذه الأسرار على أن أعلى درجات الرقي الروحاني هي العبودية، وكذابون من يدعون أن هناك درجة أعلى منها وهي درجة "ابن الله"، كلا، بل الدرجة الأعلى هي درجة العبودية، ومقام الدعاء فرع أسمى من فروع هذه الدرجة.

باختصار، كلما واجه الإنسان حائلا في سبيله بعد بلوغه مقام الدعاء، خرّ في حضرة الله، وبالتالي يتمكن من إزالة هذا الحائل مستعينًا بالله تعالى.

حدث في غزوة الأحزاب وحين حفر الخندق أنْ حاول الصحابة كسر صخرة كأُداء استعصى عليهم كسرها، فأَتَوا النبي الكريم ﷺ -لم يكن الصحابة عبيدًا له ﷺ إلا أنهم كانوا يعتزون بأن يُعَدُّوا من خدّامه نظرًا إلى الدرجة التي وهبه الله إياها- فسألوه عن الحل؟ قال النبي ﷺ: ائتوني بمعول. فأخذه وأتى الصخرة وضرب عليها بشدة فلمعت له منها برقةٌ فكبّر، وكبّر الصحابة كلهم. فلما ضربها مرة أخرى برقت برقة أخرى فكبّر النبي ﷺ وكبر الصحابة كلهم، ثم ضربها ثالثةً فكسرها. لقد ظل الصحابة يكبّرون في اتّباع النبي ﷺ فحسب، وإلا فلم يكونوا يدرون السبب الذي يبعث النبي ﷺ على التكبير، فسألوا النبي ﷺ، فقال: عندما

برقت لي البرقة الأولى أضاءت لي منها مدائن كسرى وقصور الحيرة وأُخبرتُ أن أمتي ظاهرة عليها. ثم أخذت بالمعول وضربت ضربة فأضاءت لي البرقة قصورَ الحمر، وقيل لي بأن المسلمين سيظهرون على مملكة قيصر أيضا. فلما ضربت بالمعول ضربة ثالثة أضاءت لي قصور صنعاء (باليمن) وأُخبرت بأن أمتي ظاهرة عليها. (راجع: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ذكر غزوة الخندق).

فكلما وجد العبد مشكلةً تحولُ دون إنجازه العمل المفوّض إليه، توجه إلى مولاه ويستعين به، وعليه فإن الواصل إلى مقام العبودية يظل منشغلا بالأدعية بشكل خاص ويستعين بالله كلما واجهته أية مشكلة. ومثله كمثل شخص في بستان مثمر ولديه قصبة طويلة يحرّك بها الأشجار متى شاء ويحصل على الثمر.

الدرجة السادسة: كلما زاد إيمان الإنسان بالقدر حقق رقيًا أكثر وانتقل إلى درجة أعلى، وبذل سعيه من أجل التقرب إلى الله أكثر عند رؤيته مشهد استجابة دعواته. وأخيرًا يتولد لديه نوع من الانسجام مع الله تعالى ويظل قدر الله تعالى جاريًا له سواء بذل السعي أم لا. يتحدث النبي ﷺ عن هذه الدرجة نفسها فيما يروي عن ربّه أنه قال: وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى كُنْتُ يَدَهُ وأذنه وعينه ورجله. (انظر: البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع)، أي يصبح العبد طاهرًا كليًا بعد

وصوله إلى هذا المقام، وكل ما يقوم به يصير عمل الله. ليس بوسع الإنسان الحائز على هذا المقام أن يعلن عنه إلا بأمر من الله. وهنا ينبغي التذكر أن "المقام" يختلف عن "الحال". كل مؤمن عبدٌ لله تعالى، فيدعوه ويتوكل عليه، ويخضع كل مؤمن في فترة من الفترات لحالة أمرٍ من هذه الأمور، وهي تسمى في الاصطلاح بـــالحال. أما المقام فهو أن يظلّ الإنسان قائمًا على تلك الحالة في معظم الأحيان، وليس أن تطرأ عليه لبعض الوقت ثم تزول. ومثاله كالمقيم في البيت، ومثال الأول كالزائر لبعض الوقت، فلا يمكن أن يكونا على درجة واحدة. يتيح الله تعالى لعباده أحيانًا زيارة المقامات العليا أيضا تشويقًا لهم، وإن كان بعض الجهلة ينخدعون بهذه الحالة فيصابون بمرض العجب والتكبر. هذا هو المقام الذي بلغه الصحابة رضوان الله عليهم الذين قال عنهم النبي ﷺ أن الله تعالى قال لهم: اعملوا ما شئتم. (البخاري: كتاب التفسير، سورة الممتحنة، باب: لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء).

يعترض عليه بعض الجهلة قائلين: هل كان جائزًا لهم ولو سرقوا؟ غير أنهم لا يدرون أن الذي أصبح الله تعالى له يدًا فأنّى له أن يسرق! انظروا إلى الذين يطبعون على الآلة الكاتبة فإنهم بعد الممارسة يستطيعون الطباعة مغمضي العينين ولا يخطئون. كذلك يبذر الفلاح الحبوب في الأرض بطريقة خاصة لا يستطيع أن يبذر بها من تعوزه

الممارسة والخبرة. كذلك مجلِّد الكتب يكسب خبرة في عمله فيستخدم الثقابة بطريقة خاصة. فكما أن الخبراء في هذه المهن لا يخطئون في أعمالهم، كذلك عندما يحقق الإنسان رقيًّا من خلال ممارسته السلوكية في سبل التقوى لدرجة أنْ يصبح الله تعالى له بصرا وأذنا ويدًا ورِجلا، فلا يمكن أن يخطئ. وبسبب الممارسة نفسها ترون العميان أيضا يجرون في بيوتهم. كانت امرأة عمياء تقيم عندنا، فتتوجه إلى حيث وضعت أغراضها وتأخذها بكل سهولة. ومَن لم يطلع على هذه الأمور يظن لدى رؤيته لمثل هؤلاء العميان بأنهم مخادعون، في حين أنهم أحرزوا هذه المهارة من خلال الممارسة وإلا فإنهم عميان في الحقيقة. فإذا كان الأعمى يحرز هذه الدرجة بالممارسة، أفلا يكسب بها المتنور عقليًا خبرة بحيث لا تقع يده إلا على المقام الصحيح، ويبقى مصونًا من الخطأ، ولا عجب في ذلك خاصةً إذا صار الله تعالى يدًا لأحد أو رِجلًا له.

هذه الدرجة أيضا نتاج الإيمان بالقدر الإلهي، وإلا فلولا القدر أصلا لما أمكنهم الانتفاع بالقدر الخاص. وعليه فإن سببًا آخر لإجراء القدر الخاص هو أن يصل الإنسان إلى مقام العبودية بحيث ينشأ نوع من الانسجام بينه وبين الله تعالى، فيصبح مظهرًا لصفات الله تعالى مع كونه عبدًا له. ليس هذا هو المقام الأخير بل هناك مقام آخر بعده وينبهر الإنسان برؤيته وهو مقام النبوة. يتساءل المرء: ماذا عسى أن تكون

درجة أعلى من أن يصبح الله تعالى للإنسان رِجلا وأذنا وغيرهما؟ ولكن هذا التفكير ليس صحيحًا لأن هناك درجة أسمى منها وهي أن الله تعالى قبل هذا كان قد صار للعبد يدًا ورجلا وأذنا، أما في هذه الدرجة فقد صارت يد العبد ورجله وبصره وأذنه لله تعالى، وهو المقام الذي يتمكن فيه الإنسان من الاطلاع على حقيقة القدر بشكل كامل، لأنه يصبح في هذا المقام قدرًا متجسدًا، فإن كان "القدر" ماءً، فإنه يصبح بمنـــزلة النهر لسلوك الماء فيه، وبعد بلوغه هذه الدرجة يطلع على أسرار الله تعالى، وتظهر على يده آيات الله مع كونه عبدًا له، ولهذا السبب يؤلهه بعض الجهلة. وكان فيما سبق يتوجه إلى الله بالدعاء بين فينة وفينة، أما الآن فيصبح خاضعًا للقدر في كل حين وآن. وما يفعله الواصلون إلى هذه الدرجة إنما يمكّنهم الله تعالى من فعله. ولأجل ذلك قال الله تعالى عن النبي الكريم ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤-٥).

رأى حضرته عليه السلام في الرؤيا أنه يقول: تعالوا نخلق أرضًا جديدة وسماء جديدة. ويعترض عليه بعض الجهلة معتبرين قوله كلمةً شركية، ولكن ليس الأمر كذلك، بل هي إشارة إلى مقام النبوة. ولقد سمّى حضرته المقام الأول قمرًا والثاني شمسًا، ويعني ذلك أنه في المقام الأول ينكشف نور الإنسان بواسطة الله تعالى، وفي المقام الثاني يتجلى نور الله

تعالى بواسطة الإنسان. وهذا ما فسّر به حضرته وحيه: يا شمس ويا قمر[1]. هذا هو مقام النبوة، ولا يُطلَع عليه أحد إلا بصورة "الحال"، أي لا يُطلَع عليه إلا الذين يقيمهم الله تعالى على مقام النبوة. إن جلال الله تعالى يظهر من خلال هؤلاء، إذ يمثلون نافذة لرؤية الله تعالى من خلالها. ومن لا يريد رؤية الله تعالى من خلالهم فلا يتمكن من رؤية الله.

الدرجة السابعة: تتلخص الدرجة السادسة في أن الذي لا يعرف الله تعالى فلا يسعه أن يعرف ذلك الشخص -المظهر لصفات الله-، أما الدرجة السابعة فهي أن الذي لا يقدر على معرفة الشخص الحائز على المكانة المذكورة فلا يستطيع أن يعرف الله أيضا. أي يمكن بالنسبة للبالغ الدرجةَ السادسةَ ألا يراه أحد ولكنه يرى الله. ولكن الدرجة السابعة هي أن من لا يعرف القائم على هذه الدرجةَ فلا يعرف الله، وهذا ما يسمى بالكفر. وذلك لأنه عندما يصبح أمثال هؤلاء يدًا لله ورجلا له فكأن الله تعالى توجَّهَ حيثما توجّهوا. فمن المحتم حقًّا أن من لا يراهم فلا يستطيع رؤية الله تعالى أيضا، ومن لا يرى الله تعالى فهو الكافر.

---

[1] يبدو أنه سهو، أما نص الوحي المشار إليه فهو كما يلي: "**يا قمرُ، يا شمسُ، أنت مني وأنا منك.**" (التجليات الإلهية، الخزائن الروحانية، مجلد ٢٠، ص ٣٩٧) (المترجم).

يمكن أن ترد هذه المرتبة "حالا" على الناس الآخرين، أما "مقامًا" فلا تُعطَى إلا للأنبياء. إنها أعلى المراتب كلها، ويظهر فيها قدر الله تعالى بصورة لا يفهمها كل إنسان، أما أهل العلم منهم فيستطيعون معرفة ذلك. إن الإنسان البالغ هذا المقام يرتقي إلى حالةٍ يتصبَّغ فيها بصبغة الله، وفي مثل هذه الحالة يظهر القدر بصورة حقيقية. لقد انمحى وجود محمد رسول الله ﷺ في ذات الله تعالى واختفى فيها، وبالتالي فقد صار كل فعلٍ قام به من الله تعالى حقيقة، أما أنتم فلا يجعلكم الله تعالى تقومون بما تقومون به، لأنكم لستم يدًا لله، فمن يرتكب خيانة الأعين فإنه يرتكبها هو، ومن يسرق فلا يدفعه الله تعالى إلى هذا الفعل، إنما يفعله المرء من تلقاء نفسه.

إنما يدفع الله تعالى إلى العمل مَن يصبحون مظهرًا لصفاته ومن كان الله تعالى لهم يدًا ورجلا وعينًا وأذنًا، أو الذين يصبحون لله تعالى يدًا ورجلا وعينًا وأذنًا، ويعاقَب من يعترض على أمثال هؤلاء ولو على خطئهم الذي صدر منهم بمقتضى بشريتهم. هذا هو حدّ القدر الإلهي الذي له علاقة بالإنسان.

لقد انتهيت الآن من ذكر فوائد الإيمان بالقدر الإلهي، ومن خلال الاطلاع عليها يمكن معرفة مدى أهمية هذه المسألة لتكميل الروحانية، ولذلك جعلها الله تعالى من شروط الإيمان.

هذه هي مسألة القدر التي يتعثر فيها عامة الناس. وفقنا الله تعالى لفهمها فهمًا صحيحًا والانتفاع بها، آمين.

❁❁❁❁❁